حَياة يَسوُع الملِكِ في نُفوسِنَا

محاضرات ألقاهَا في كاتدرَائيّة الرّوم الكاثوليك

بمصرَ القَاهِرة

الاكسرخس ثيوُفانّس شار النَائِب البَطريرَكي بالقاهِرة

من الاكليرُوس البَطريركي

الحقوق محفوظة للمؤلف

مطبعة القديس بولس 1946 حريصا لبنان

بطريركية

انطاكية والاسكندرية وأورشليم وسائر المشرق

للروم الكاثوليك

سجل	عدد
18	403

الاسكندرية 11 اكتوبر 1945

حضرة الابن العزيز الفاضل الاكسرخوس ثيوفانس شار

الوكيل البطريركي بالقاهرة الجزيل الاحترام

سلام ودعاء وبركة رسولية

ها انكم أنجزتم الحلقة الرابعة من سلسلة مؤلفكم الثمين في يسوع الملك. فبعد أن أجدتم في الكتابة عن الوهيته وملكه وعن كنيسته عروسه وعن شريعته وضعتم مؤلفكم الرابع في حياة يسوع الملك في نفوسنا فجاءت سلسلة رائعة كاملة ستخلد ذكركم إلى طول الايام . أن

يسوع هو الحياة وانما أتى إلى العالم لكيا تكون لنا الحياة وتكون لنا أوفر. وحياته فينا تتلخص في النعمة أي بمحبته والاتحاد به وقناة النعمة انما هي الأسرار المقدسة والصلاة . وعليها يدور محور مؤلفكم هذا الثمين . فقد اجدتم فيه على مألوف عادتكم واضفتم إلى مبادئ الحياة الالهية النظرية تطبيقها العملي بموجب ما عشتم واختبرتم في حياتكم الكهنوتية . فلا شك انكم اديتم خدمة تذكر فتشكر للنفوس المتعطشة إلى حياة يسوع وان مؤلفكم سيلاقي رواجاً عظيماً وثناءً جمًّأ. فنبارككم ونباركه من صميم الفؤاد ونثني على تضحياتكم وجهودكم وانكبابكم على التأليف الروحي سائلين يسوع الملك أن يفيض دوماً نعمته عليكم وان يزيدكم قوةً ونشاطاً في سبيله المقدس ومكررين على بنوتكم العزيزة التحية الأبوية والبركة الرسولية

كيرلس التاسع

بطريرك أنطاكية والاسكندرية وأورشليم

وسائر المشرق

صدر عن الديوان البطريركي الاسكندري

في 11 أكتوبر سنة 1945

الى سيادة العلامة الجليل الصالح

الاكسرخوس ثيوفانس شار

الجزل الاحترام

شكراً لتفضله بإهداء كتبه النفيسة

يا أبانا اتحفتَنا ولك الفضل بمجموعة من الأَسفارِ في ((المسيح المليك)) ربِّ البرايا منبعِ الحب مصدرِ الأنوارِ في ((عروس المسيح)) أو في الوفيات ذِماماً لأطهر الأطهارِ في ((الوصايا العشر)) التي استكملت في الشرع للناس حاجة الأدهارِ في ((حياة للروح)) تخلصها من موبقات الأهواء والأوضارِ يا أبانا جزيت خيراً بما حاضرت فيه من البحوث الكبارِ وبما قد كشفتَ للناس عنه من خبايا الأعماق والأغوارِ وبما قد بذلتَ من صادق النصح لأهلِ الحُلومِ والأبصارِ انما التوبةُ الوسيلة للإصلاح في كل تائبٍ لا يُماري والصلاة المَعَاذُ من كل سوءٍ و المَلاذُ الواقي من الاخطارِ يبلغ المرءُ بالصلاة وبالتوبة اسنى مراتبِ الأبرارِ والى الله بالهداية يَرقى من حضيض الجهل البعيد القرارِ حِكَمٌ صغتَها بِدُرٍّ من اللفظ منيرٍ كساطعات الدَّراري فالمباني الى السماءِ مَراقٍ والمعاني فياضةٌ كالبحارِ وكأنَّ الالهامَ يَهبطُ من

عُلْوٍ بقُدسيَّةٍ من الافكارِ ذاك وحي الايمانِ ابرزتَ فيه جودَ فادي الورى ومجدَ الباري الكريم المُثيبِ من يتَّقيهِ والحليمِ الغفورِ للأوزارِ

يا ابانا الذي استجاب لداعي خِدمةِ اللّه لا لداعي الفَخَارِ و حبا شعبَهُ بأحسن ما يَرْقُبُه من رُعاتِهِ الأَخيارِ بارك اللّه في صنيعٍ سيبقى أبدَ الدهرِ خالدَ التذكارِ

خليل مطران

القاهرة في 22 يونيه 1946

مقدمة الكتاب

رأينا في القسم الأوّل من المحاضرات الملقاة في الكنيسة الكاتدرائية بالقاهرة السيد المسيح مالكاً بلاهوته على عقول الأفراد والعيال والشعوب. وقد ثبتت لنا ألوهيّته بما عرفنا من تعاليمه وعجائبه ونبوءاته وقداسته وقيامته، فاعتقدنا بأنه ابن الله المتجسد، وسجدنا ليسوع المسيح ملكنا والهنا، فله الحق أن يملك على عقولنا وقلوبنا ورغباتنا، وان لا نحيا إلاَّ له

و طالعنا في القسم الثاني أن هذا الاله الملك، بعد أن تأنس وفدى العالم بموته، أراد قبل صعوده إلى السماء أن يؤسس كنيسة تواصل عمله في خلاص البشر، ووعدها بأن يكون معها كل الايام الي منتهى الدهر . فبحثنا عن ماهيّة هذه الكنيسة ودرسنا المبرّات التي أراد أَن يزّينها بها، فعرفنا انه قد شاء أَن تكون كنيسته واحدة جامعة مقدسة رسولية. ثم بحثنا في نظام الكنيسة الكاثوليكية وكيفية تأليفها، فوجدنا فيها صفات الجمعيات الكاملة المركبة من رأس منظور وأعضاء وإِدارة كاملة، وعرفنا غايتها في اتمام أمر السيد المسيح بالتبشير

بتعاليمه وبرعاية النفوس في مراعي الخلاص واروائها من ينابيع النعم الروحية. واعتقدنا أن العلامات التي أرادها السيد المسيح لكنيسته تنطبق على الكنيسة الكاثوليكية. ثم تتبّعنا شيئاً من تأريخ رسلها وشهدائِها وآبائها القديسين وما كان لها من التأثير في الانسانة بنشر منافع الفضيلة والصلاح والتمدن في العالم، فاعتقدنا بأن يد الله بقيت معها على توالي الأجيال

ثم تابعنا بحثنا في القسم الثالث فبسطنا ما يطلب السيد المسيح من الواجبات بدرسنا شرائع يسوع الملك . فرأينا كيف نحقق في سلوكنا عمليًّا حفظ وصايا الله و كيف نحفظها مجسَّمة في حب الله والقريب . وعرفنا وصيته الجديدة في المحبة الحقيقية، وكيف تكون العفة الزوجية والبتولية والصدق والاستقامة، وما هي العوائق المانعة نفوسنا من حفظ هذه الوصايا وما هي الفضائل التي يجب ان تتحلّى بها

وقد بقي علينا أن نبحث الآن في جزء رابع هام عن حياة السيد المسيح في نفوسنا، تلك الحياة التي اقتناها لنا بدمه وكانت الغاية من مجيئه على الأرض، بحسب ما قال هو نفسه: ((اني اتيت لتكون لهم الحياة وتكون لهم أوفر))، فنُعمل الرويّة في الوسائل التي قرّرها للحصول على هذه الحياة ،أي الصلاة و الاسرار، ونقف متأملين أمام كل ينبوع من ينابيع الخلاص، ونتعلّم كيف نستقي منها لتحيا نفوسنا وتنمو وتتغذى وتسلك سلوك السيد المسيح على الأرض لكي تحيا به

وقد لاقينا تشجيعاً كبيراً من قِبل غبطة السيد البطريرك كيرلّس التاسع الكلي الطوبى والسادة الأساقفة الاجلاء ورؤساء الرهبانيات الموقرين ومصاف الاكليروس المحترم و اقبال عدد كبير من المؤمنين على مطالعة الأجزاء الثلاثة السابقة . واذ قد حصلنا الآن على بعض الراحة في ايام العطلة الصيفية مكّنتنا من إِعداد الجزء الرابع، فبكل سرور نقدمه للنفوس العطشى إلى الحياة الروحية

ولنا الامل بنعمة الله ان تنال هذه النفوس المنفعة التي نتوخّاها، وأن يسدل القارئ ستر المعذرة عمَّا يجد من الخلل . إذ لا رغبة لنا الاّ في خدمة يسوع المسيح الملك، لتزداد النفوس المفتداة معرفة ومحبة لمن هو لها الطريق والحق والحياة

الفهرس

رقيم بطريركي	2
قصيدة خليل بك مطران	4
مقدمة الكتاب	6
ما هي الحياة الروحية	11
في الخطيئة الأصلية	22
الصلاة	29
الاسرار	37
رسم الاسرار	45
المعمودية	55
التثبيت	63
الاعتراف	75
التوبة	82

ايمان الكنيسة بسر الأفخارستيا	90
تناول القربان	99
الكاهن	108
مسحة المرضى	118
الزواج	127
دعوة الزواج	137
واجبات الزواج	145
الحياة في النادي الكاثوليكي السوري	153
امراضنا الاجتماعية	167

ما هي الحياة الروحية

((اني اتيت لتكون لهم الحياة وتكون لهم اوفر)) (يوحنا 10 :10)

روى الانجيل المقدس في الفصل الرابع من بشارة القديس يوحنا المحاورة التي جرت بين السيد المسيح وامرأَة سامرية جاءَت لتستقي ماء، فاقتادها مخلصنا الالهي إلى التوبة ثم إلى الاقرار برسالته الالهية. وقد وردت في تضاعيف ذلك الحديث العجيب عبارة جميلة نستطيع ان نتخذها تنبيهاً لنا من غفلتنا التي تجعلنا نجهل من أنفسنا ما هو الأكمل فينا، عَنَيتُ تلك الحياة الفائقة الطبيعة التي ترفع الانسان من بعض الوجوه إلى رتبة الألوهية، اذ تجعله ((شريكاً في الطبيعة الالهية)) بواسطة النعمة، ومن اهل بيته تعالى ، ووارثاً له في الحياة الخالدة . تلك هي الحياة الالهية السامية التي جاء السيد المسيح ليمنحنا إياها غزيرة وافرة، أو بالحري ليردها لنا بعد أن خسرناها بالخطيئة الجدية . وهي لنا عطية الله المُثلى التي كثيراً ما نجهلها او نتجاهلها او نعيش غير مكترثين لها، ومستوجبين لذواتنا توبيخ للسيد المسيح للسامرية : ((لو كنتِ تعرفين عطية الله)) (يوحنا4 : 10) لذلك لا بُدَّ لنا، وقد جعلناها موضوعاً لكتابنا هذا، من ان نعرّفها ونبسط للمؤمنين : أولاً عظمتها السامية — ثانياً نتائجها الأدبية البليغة في طبيعتنا البشرية الساقطة الى اقصى دركات الحقارة

أولاً : عظمة الحياة الفائقة الطبيعة

لَّا فرغ الخالق عز وجلّ من خلْق هذا الكون المادّي المعدّ لقبول سيده الانسان أخذ يناجي نفسه ، كما يصوّره لنا الكتاب في الفصل الأول من سفر التكوين . ((وقال الله : لنصنع الانسان على صورتنا كمثالنا . وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الارض وكل الدبابات الدابة على الأرض. فخلق الله الانسان على صورته . على صورة الله خلقه ... ورأى الله جميع ما صنعه فاذا هو حسنٌ جداً))

ذلك ((أن الرب الإله جبل الانسان تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار الانسان نفساً حية))، لكن نفساً اسمى بكثير من سائر الكائنات الحية. لان تلك النفخة القدسية كانت عنصراً روحياً جعل الانسان فوق سائر الخلائق الارضية ، فوق المادة و الزمان، كائناً روحياً خالداً . فعقله، بترفعه فوق الحواس والغريزة رفعه إلى اسمى طبقات الاشياء غير المحسوسة. ونفسه، بالرغم من ضعف جسده القابل الانحلال، تبقى خالدة مدى الابدية

بيد ان الانسان، مهما يكن من سموه هذا، كان لا يزال في مرتبة الخلائق التي تتكوَّن منها الطبيعة . والله كان مزمعاً أن يقربه اليه ويرفعه إلى شيء من الألوهية . وهذا التأليه، وهذا السمو الفائق حدود الطبيعة البشرية هو ((العطية الالهية)) التي جاء المسيح يوحي بها الينا . كانت نفسنا تنهض بنا إلى حياة الخلائق الروحية. واذا بالله يريد ان يرفعنا إلى درجة الحياة الالهية .وشتان ما بين هذه وتلك !

تلك ذرى يصعب التحليق اليها بقوتنا الذاتية والنظر فيها بعين العقل المجرَّدة . فلا بُدَّ لنا أن نسمو اليها بواسطة تعاليم ايماننا المقدس . واذا كانت طبيعتنا البشرية المحضة تجعلنا في منزلة سامية بين الخلائق، فطبيعتنا البشرية المؤَلهة تجد منزلتها بقرب الخالق . ايها الانسان، ايها المسيحي، إعرِف منزلتك ولا تُدنِّس مقامك

وما هي تلك المنزلة السامية ؟ انها ليست كمالاً أدبيًّا يسند طبيعتنا ويجعلها أقرب إلى الكمال الالهي، ولا صداقة يتنازل بها الله إلى حقارتنا بدون أن ينشلنا من تلك الحقارة، ولا تبنياً طاهراً كتبني اليتيم لإدخاله أسرة المتبني ليتمتع بخيراتها وحقوق ابنائها بدون تغيير شيء في جوهره وطبيعته الخاصة . بل هي تأْليهٌ لجوهرنا، وولادة جديدة لحياةٍ جديدة الهية ، بها يهبنا الله في نفسنا عنصراً جديداً نسميه النعمة، هو لنا مبدأُ كيان الهي فائق الطبيعة، واعمال الهية فائقة الطبيعة، بحيث ((ندعى ونكون حقاً ابناء الله)) مولودين ((لا من دمٍ ولا من مشيئة لحم ولا من مشيئة رجل بل من الله)) ، ((نعمل اعمال الله))، ونكون امثاله ((ونراه وجهاً لوجه)) ونتمتع بحبه وسعادته مدى الابدية كلها

هذه المنزلة لم تكن طبيعتنا البشرية، أيًّا كان سموّها على سائر الخلائق المادية، لنتصوَّرها او تحلم بها او تطمح اليها، لان ثقلها الذاتي يهوى بها ولا يسمح لها أن ترتفع الى تلك الذرى الالهية. وهي المنزلة التي شاءت المراحم الالهية والسخاء الالهي أن ترفعنا اليها، لتتيح لنا الولوج الى خدر الالوهية، الى قدس الأقداس في الهيكل السماوي، والنظر إلى عرش الاله المثلث الشموس فنشبع من رؤية سنائه، والدنو من قلب الله بالحب لينبض قلبنا

نبضة قلبه عينها . اذ نستطيع بالبر ان نعاين وجهه ونشبع عند اليقظة (من سبات الموت) بصورته ((وأنا بالعدل اشبع متى ظهر لي مجدك)) (مزمور 16 :15)

وقد تمت مشيئة الله هذه منذ خلق الانسان، كما تعلمنا الكنيسة المقدسة، حيث كان آدم ابونا الأول منذ ظهر إلى الوجود، لا خليقة كاملة فحسب، بل ابناً لله ايضاً حائزاً نعمته ومعدًّا للتمتع به في سمائه . فجاءت الخطيئة وحرمت آدم تلك المنزلة السامية وما صحبها من الامتيازات الرفيعة . ولم تحرمه وحده بل حرمت جميع ذريته معه . فجاء السيد المسيح ابن الله المتجسد، ليعيد الينا تلك المنزلة والحقوق السامية. وكان يقول : ((إني أتيت لتكون لهم الحياة، الفائقة الطبيعة وتكون لهم او فر)). وسنّ أن جميع الناس ينالونها بولادة جديدة ((بالماء والروح))، كما قال لنيقودمس : ((ان لم يولد احد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله ... هكذا أحب الله العالم حتى إنه بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية)) (يوحنا 3 : 5 و16).

وهكذا كل مرة يمنح احد سر المعمودية المقدسة يولد بالماء والروح، فتفرح الاقانيم الالهية الثلاثة في السماء لان لها ابناً على الارض يشترك في الطبيعة الالهية ويصير اهلاً لان يعرف الله كما يعرف الله نفسه، ويعاين يوماً الهه وجهاً لوجه ويحيا بحياته وينعم بمجده وسعادته . هذا المسيحي الجديد هو خليقة جديدة يزهو على هذه الارض بنعمة الله . وهو معد لان يذهب بعد الموت الى بيته الابوي، مسكن الله السماوي، حيث ينظر إلى الحياة في

ينبوعها والى النور في مصدره والى الحب في اتونه الصافي، ويتمتع بالخير الاسمى بلا ملل ((ان عندك ايها الرب ينبوع الحياة وبنورك نعاين النور))

بيد أن عطية الله هذه ليست للحياة الاخرى فقط، بل لهذه الحياة ايضاً . فالنعمة هي موهبة الله المخلوقة، والله لا ينفصل عن موهبته هذه . فقد قال لنا السيد المسيح : ((ان احبني احد فأنَا احبه وابي يحبه واليه نأتي وعنده نجعل مقامنا)). فكما ان الام لا يسعها أن تنظر إلى ابنها الذي هو فلذة كبدها بدون أن تضمه إلى صدرها، هكذا الله جلّ جلاله لا يسعه أن ينظر إلى المسيحي الذي هو في حالة النعمة بدون أن يرى فيه صورته البهية ويضمه إلى صدره، اي يأتي اليه ويسكن فيه تلك السكني العذبة التي انما توطئة افراح السماء وسعادتها

فيا لها من سكنى مشرِّفة للإنسان تجعله هيكلاً للثالوث الاقدس، ومقدسٌ للروح القدس الذي هو مصدر كل قداسة فينا. ((الا تعلمون ان اجسادكم هي هياكل الروح القدس الحالّ فيكم)). فمن دخل هذا القدس يعمل فينا عمله المؤله : فيبعث إلينا الهاماته، ويحرّك إرادتنا وقلبنا لعمل الخير، ويبعث فينا تلك القوى الفائقة الطبيعة اي النعم الحالية التي تساعدنا على اتمام ما يرومه منَّا في سبيل الكمال المسيحي. وعلى الخصوص ينعشنا بمواهبه السبع التي تجعلنا أكثر انقياداً لالهاماته

حينئذٍ تنشأ بين النفس و الههها الساكن فيها مناجيات ودية تسيل عذوبة ،كما هي الحال في النفوس القديسة الشديدة الاتحاد به، مما يعجز عن وصفه كل من لم يشعر به في

الواقع . وجلُّ ما يمكن أن يقال من هذا القبيل أن النفس الحاصلة على نعمة الله الشاعرة بوجود الهها فيها، تنال منذ هذه الحياة عربون الميراث السماوي، وتذوق سابقاً افراح الحياة الاخرى، على حسب ما كانت تقول تلك الراهبة التقية اليزابت عبدة الثالوث الأقدس ((أني وجدت السماء على الارض لان السماء هي الثالوث الأقدس والثالوث الأقدس ساكن في قلبي))

فلا حاجة لنا من بعد إلى البحث عن الله في الخلائق، او إلى التحديق في اعماق القبة الزرقاء لنجد مقرّ الاله الذي يحبنا ونحبه. انه غير بعيدٍ منا، بل هو في داخلنا، كما قال السيد المسيح ((ملكوت الله في داخلكم)) ، ((به نحيا ونتحرك ونوجد)) لا حياةً طبيعية فقط، بل حياة فائقة الطبيعة شبيهة بحياته الذاتية . بل ((نحن ذريته اذ قد ولدنا بمشيئته وارسل روح ابنه إلى قلوبنا لننال التبني وندعوه بحق ابَّا أيها الآب . اذ نحن ابناء فنحن وارثون الله بيسوع المسيح))

فما اعجب اعمالك في الكون يا رب لقد صنعت جميعها بحكمة ! لكن ما فعلته فينا يفوق كل فهم بشري . حقاً لقد خلقتنا على صورتك كمثالك واردت ان تبلِّغ تلك الصورة ذروة الكمال . فجعلتنا ابناءَك كأَننا من لحمك ودمك، نحيا حياتك عينها، تلك الحياة الإلهية والمؤلهة . تلك هي منزلتنا السامية أن ندعى ونكون ابناء الله ! أمام هذه المنزلة السامية تغور كل الأمجاد البشرية والغنى وشرف الأَرومة، لان البنوَّة الإلهية التي نكتسبها بالصبغة

السرية تلقي علينا من المجد والسناء ما يمحو كلَّ مجدٍ سواه، كما يمحو تألق الشمس الساطعة في الظهيرة تألق النجوم في كبد السماء

على أن هذه المنزلة الرفيعة تفرض علينا واجبات خطيرة يجب ان تتوسع في بسطها الآن

ثانياً : الواجبات الناجمة عن الحياة الفائقة الطبيعة

ان ما يشرّف الانسان ويرفع قدره يلزمه بالفعل عينه بواجبات تتفق مع كرامة مقامه . ذلك ما نعرفه حق المعرفة في الشؤون الطبيعية، طبقاً للمثل الفرنسي القائل ((نبالة المرء تخلق له واجبات)). لكنها هنا نبالة الله بالذات ! فيا لها من نبالة ساحقة ! أنها تفرض علينا رفعة في الأفكار، وسموًّا في العواطف، وطهارة في السلوك، تتفق مع سمو الدعوة التي دُعينا اليها . لذلك سنّ السيد المسيح لتلاميذه هذه القاعدة المدهشة : ((كونوا كاملين كما ان اباكم السماوي كامل))

ذلك أن النفس المخلوقة على صورة الله، المتمتعة بالبنوَّة الالهية، المدعوة للفوز بالميراث السماوي، لا يمكنها أن يكون منهاج سيرتها الا في السماويات. فالمنهاج سامٍ ونتائجه للطبيعة الفاسدة قاسية لا مناص منها . لكنه نافع ومفعم خيراً. اما كماله الادبي وجماله الفتان فلا يراهما الا من يقبله كاملاً بحذافيره غير منقوص، ويقبل على السير بموجبه بنية صالحة وعزم ثابت . ومن الخطأ والضلال أن يحتفظ الانسان بشيء من هذا المنهاج السامي ويترك الباقي، لأنه يشعر حينئذٍ بصعوبته وقساوته بدون أن يتمتع بفوائده ونعمه

ان حياة النعمة التي بسطناها بإيجاز في الجزء الأول من كلامنا هذا، ليس مفعولها في الحالة الحاضرة أن تعصم الانسان من نزوات الشهوة الغير المرتبة، كما كانت الحال قبل الخطيئة الأصلية .فالمعمودية تؤله نفسنا ((وتلبسنا الانسان الجديد الذي يتجدد علي صورة خالقه، لكنها لا تقتل فينا الانسان العتيق الفاسد بشهوات الغرور))، ومن ثم تترك لنا سبيلاً للتسلط على أهوائنا التي تهوي بنا إلى اسفل، حتى اذا دسناها طرنا بأجنحة الروح إلى الأعالي حيث تدعونا نعمة الله والهاماته . ذلك هو اصل الجهاد بل العراك القائم فينا بين الروح الذي يشتهي ما هو ضد الجسد والجسد الذي يشتهي ما هو ضد الروح، فيقاوم كل منهما الاخر مقاومة عنيفة يجب أن تنتهي بقهر الطبيعة وانتصار النعمة . وللطبيعة في هذا النضال امتياز ناجم عن ان موضوع اشواقها محسوس قريب اليها في حين أن ما تصبو اليه النعمة لا يزال في عالم المرجوات غير المنظورات، ممَّا يدفعنا في بعض الأحايين إلى التضحية بما هو الهي ثمين بعيد المنال في سبيل ما هو ارضي محسوس قوي الجاذبية . ويعوق سيرنا وهجومنا في هذه الموقعة الدائمة بين الخير والشر، بين الطبيعة والنعمة، ما نراه في ذواتنا من تمرد القوى السفلى على الارادة، من جراءِ الخطيئة الاصلية او لاً، ثم ممَّا تعاقب علينا من اخطأ الأسلاف والأجداد، بحيث يمر الدم من عروقهم الينا مثقلاً بعواقب ذنوبهم الخاصة . فاللذات التي ثملوا من شرب مسكراتها لا تزال تحرقنا، والشرور التي ادمنوا ارتكابها لا تزال نفوسنا تتقلب فيها، والرُّبُط الأثيمة التي قيدوا ذواتهم بها لا تزال حلقاتها تشد اوصالها. وان تكن أهواؤهم قد تحولت إلى تراب في قبورها فهي لا تزال حية فينا تدفعنا إلى المآثم التي تمرغوا بها

ذلك ما ورثناه منذ ولجنا ابواب هذا العمر الزائل . فما عساه أن يكون بعد ما زدنا عليه من مآثمنا الخاصة ؟ فإننا كل مرة سقطنا في التجربة قيدنا نفسنا بسلسلة جديدة، على ما قال السيد المسيح ((ان من يعمل الخطيئة هو عبد للخطيئة)) فجعلنا انكسارنا النهائي امراً اكثر تأكيداً. وكم من النفوس البشرية، بالرغم من دعوتها السامية، اذ ترى في ذاتها ذاك العجز التام عن النهوض من كبوتها، تنسى مقامها وشرف محتدها وسمو منزلتها فتتنزل عن عرش سيادتها وتلقي بين ايدي اهوائها وغريزتها مقود شؤونها فترمي بخبز البنين للكلاب وتلقي جواهر الهبة السماوية بين اقدام الخنازير لتدوسها

اما نحن، ايها المؤمنون المعمدون بالمسيح، المؤلهون بنعمته، المختارون للفردوس السماوي، فلا يمكننا أن نفعل هكذا . بل علينا أن نحترم سر العماد فينا ونعمة الله في نفوسنا . فلا نطيق في حياتنا ما لا يتفق مع كرامتنا . واذ نشعر بسمو المنزلة التي رفعنا الله اليها نحتج ضد كل سيادة للأهواء الفاسدة في حياتنا ونقاوم تلك السيادة المغتصبة، ونرد السلطة فينا للروح على الجسد وللإرادة على الشهوات، ولله علينا

ذلك هو ملخص الحياة المسيحية فينا : أن نتحرر من اسر الخطيئة وعبودية الأهواء ((لنسلك في حرية مجد ابناء الله)) . فان السيد المسيح الذي اتى ليحررنا جاءَ لا ليلقي فينا سلاماً مع أهوائنا بل ليقلدنا السيف الذي به نستأصل كل ما يناقض كمال البنوَّة الالهية فينا . ((فان ملكوت السماوات يغصب، والغاصبون يختطفونه))

اجل ان طبيعتنا المسكينة ترتعد لدى سماعها كلمة الجهاد وتهلع عند رؤيتها مبضع التضحية يعمل في اميالها غير المرتبة . لكنه يأتي يوم سوف تسعد فيه لرؤية قيودها قد قطعت وصارت تحلِّق بأشواقها ورغائبها في الأجواء العالية ، حينئذٍ يتراءَى لها منهاج الحياة الروحية لا منهاجاً لحياة البطولة فحسب، بل منهاجاً لنيل السعادة أيضاً

هلموا الان يا معلمي الآداب البشرية، وأَقروا أمام الجميع هل في تعاليمكم، مهما كانت سامية في فلسفتها، شيء يقرب من هذا التعليم المسيحي الصافي ؟ هل عندكم ما يرفع الانسان الى درجة الألوهية، ويدفعه إلى الأمام في الكمال وهو يقول : إني أريد أن أكون كاملاً كما ان ابي السماوي هو كامل ؟ اريد ان اشرف دعوتي واكون اهلاً لنعمة الله الحالة فيَّ . انكم تبقون ابداً دون هذه الافكار السامية، لأن الكمال الذي تدعون اليه كمال طبيعي، اما الكمال الذي تدعو اليه الكنيسة المقدسة اولادها فهو فائق الطبيعة. هي حارسة النعمة في نفوسنا، فلا تطيق احتمال اي وصمة تُلطخ بها تلك النفوس، ولا تطيق أن ترى اولادها يمحون من جباههم علامة البنوَّة الالهية، وينفون من سلوكهم رجاء الخيرات الآتية التي أُعدت لهم. ومهما تعددت سقطاتهم، فهي لا تقبل أن تحيد عيونهم عن ذلك المنهاج السامي بل تضعه دوماً نصب عيونهم ليكون لهم في ظلمات هذا العمر الزائل المنارة الساطعة الضياء التي تقيهم العثرات وتقودهم إلى ميناء الحياة الابدية. وشعارها دوماً هذه العبارة : يا بَنيَّ احملوا كما يليق الاسم الذي يشرفكم فانتم بنو الله العلي مدعوّون لتكونوا قديسين . انكم منذ اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح .فلا تدنسوا ثوب البر الذي لبستموه عربوناً للولوج في الاخدار السماوية

ذلك هو السر البليغ الذي يشرح لنا كثرة تلك النفوس البارّة المحافظة على نقاوة المعمودية في عالم قد تدنس بالفساد وصار الهواء الذي يهبُّ فيه موبوءًا . ذلك ما يشرح لنا سلوك تلك النفوس التائبة، التي بعد ان ذاقت ملذَّة الخطيئة ومرارتها، رجعت إلى ذاتها وهجرت الدنيا وما فيها، لتقضي ضمن حصون الأديار حياة جمَّلتها التوبة، وتسترجع لنفسها تلك السيادة المطلقة على الأهواء كأَنها قد تجردت من الجسد وهي لا تزال في الجسد. ان هذا المنظر الجميل يأخذ بمجامع الفؤاد : نفوس خلقت على صورة الله، وقد صارت من أُسرة الله، تعيش في الله ولا جل الله في أُلفة مع الله . لأنها موقنة أن فيها جذوة مقدسة تقربها إلى الله، وتدعوها إلى أن تغور في الله، فيصير الله كلاًّ ف الكل

تلك هي الحياة الروحية التي جاء المسيح ليقدمها لنا غزيرة وافرة. فلنطلب الى مراحمه أن يفيضها علينا ويحفظها ويقويها فينا، ويكملها ويجعلها ينبوعاً للحياة الأبدية التي اتمناها لجميعكم بنعمته الالهية آمين.

في الخطيئة الاصلية

ان مظاهر الشقاء الحالّة بالإنسان، من مرضٍ وموتٍ وضعفٍ في العقل والارادة، وميلُ الانسان الى السوء اكثر مما إلى الخير، وسائر المصائب المنصبَّة علينا في هذه الحياة، ليس لها تفسير عقلي مقبول الاَّ في قصاص اصلي فُرض على آدم وذريته. وهذا القصاص استحقه آدم بسبب خطيئة أصلية وَقَع فيها

وهوذا الكتاب المقدس يفسِّر لنا بأَجلى بيان حالتنا التعِسة الحاضرة بتلك الرواية المريعة المذكورة في اول صفحة من صفحات الكتاب الكريم . فان في هذه الرواية وصفَ تجربة الانسان وسقوطه في زلة وفَرض عقاب له شديد روحي وزمني

اراد الله أن يجرّب الانسان بعد خَلقهِ اياه قبل أن يجعله في السعادة التامة . ولم يُرد أن يكافئه بدون استحقاق منه، بل قرّر ان يكون للإنسان اشتراك في الفضل واجر في المكافأَة

خلق الله باقي الكائنات غير الناطقة وأَحلَّها مكانها في الكون مرغمة، فخلق البحر ووضع له حدًّا، ونثر الازهار مخصصاً لكل جنس منها لونه ورائحته، وخلق الطيور والحيوانات ووهب لكل منها سليقة لا تخالفها، ونظم الافلاك وخطَّ لكل كوكب دائرة . امَّا الانسان الذي خلقه ناطقاً فقد جعله حرًّا في طلب سعادته لا ينالها الاَّ عن طريق الحرية، لكي يُطيع الله مختاراً لا مكرهاً، وبهذه الطاعة الحرة والخدمة المختارة يزداد مجد الله ويبقى سبيل للمكافأَة ويشعر الإنسان بفرح عظيم اذ يُطيع مختارًا نعمة الله ويستحق بطاعته المكافأَة

هذه هي السنة المفروضة على البشر ولا يكاد الانسان يعرف قيمة الخير الا على قدر ما يجاهد لأجله . فلا يفتخر قائد الا على قدر ما يخوض غمرات الحرب مجاهداً، ولا تعرف قيمة لصديقك وتتعلق بصداقته الا على قدر ما يقاسي من المشقات في سبيل حبك، فحينئذٍ تقول هذا هو الصديق المخلص. لذلك أراد الله أن يمتحن الانسان ليظهر حبه. واذا اساء الانسان استعمال حريته فليس له ما يلوم به الله كما انك اذا سعيت في تعليم ولد ثم استعمل علمه للضرر فلا لوم عليك في تعليمه؛ وكذلك اذا اغنيت أسرة واساءت استعمال غناها فلا لوم على صنيعك هذا. فقد خلق الله الانسان ليحبه ولم يطلب اليه هذا الحب مرغماً، بل اراد منه حباً اختيارياً، ولهذا رأى من الواجب أن يجربه

وبماذا جرّب الله الانسان ؟ هل قال له : لا تشتهِ امرأَة قريبك ؟ لا، لأَنها لم تكن اذ ذاك امرأَةٌ لقريب . هل قال له : لا تشتهِ مال غيرك ؟ لا، لأن آدم وحده كان الملك المسلط على الخليقة . بل اراد ان يختبر طاعته في امرٍ منعه عنه .ولا يُعدّ هذا الامر طفيفاً، لأن الله هدد بالموت من يخالف أَمره. فالراية هي شيء صغير في ذاتها اذا نظرنا اليها كقطعة نسيج، ولكن قطعة النسيج هذه اذا صارت عنوان وطن في تركيبها اصبح تمزيقها عنوةً امتهاناً للوطن الذي تشير اليه

لذلك بعد أن وضع الله آدم في الفردوس ومنحه كل خيراته، واعطاه شريكة لحياتهِ رأَى فيها رغائب قلبه، اراد ان يختبر طاعته فمنعه مع زوجته أن يأْكلا من شجرة واحدة وهي

شجرة معرفة الخير والشر. فقال له : ((من جميع شجر الجنة تأْكل وامَّا من شجرة معرفة الخير والشر فلا تأْكل منها فانك يوم تأْكل منها تموت موتاً))

هذا ما طلبه من آدم وحواء ليختبر طاعتهما له . واما عدوُّ الانسان – ذاك الملاك الذي اصبح شيطاناً بسبب كبريائه، الذي قال بنفسه اصعد إلى السماء واصير شبيهاً بالعلي وقد تدهور للحال في جهنم وحُرم من سعادة رؤية الله – هذا الشيطان حسد الانسان على حالته وخشي أن يحل محله في السماء فأتى بسماح الله واتخذ هيأَة حية، هيأة ذاك الحيوان المعوجّ الملتوي الزاحف على الارض والذي هو عنوان الخداع والغش، اللين في ملامسه ولكن في انيابه العطب . فسواء دخل الشيطان جسم الحية أَم صار شبيهاً بالحية بتكوُّنها وكذبها وحيلها، فهو شبيه بالرجل الحاسد قريبه لنجاح يزعجه فيرى لذته في القاءِ قريبه في هوَّة الشقاء . فإِن للشيطان امثالاً وأَعواناً في هذا الكون

وقد أراد الشيطان أن يبتدئ بتجربة الامرأة لعلمه بانها اضعف من الرجل، وانه اذا ظفر بالامرأة، هان عليه الظفر بالرجل.

ولا أحد ينكر ما للمرأة من نفوذ على الرجل وهي التي قيل عنها أنها بينما تهز السرير بيد تهز العرش يد أخرى. فهي آلة العار والدمار، وهي سبب الصلاح والفساد، وهي التي اذا كانت ابنة صالحة اسعدت اسرتها، واذا كانت زوجة فاضلة اسعدت زوجها، وإذا كانت قديسة حملت اولادها جميعاً على القداسة . واذا فسدت المرأة فالويل للعالم . وهذا ما نراه على توالي الايام . فمن جعل بيت ابراهيم في اضطراب ؟ – سارة . ومن التي

حاولت إِفساد يوسف ؟ – امرأة فوطيفار. ومن التي ذللت شمشون الجبار ؟ -زوجته دليلة . ومن التي اسقطت داود – بيتشابع . ومن أفسد سليمان الحكيم ؟ النساء الغريبات. ومن جعل آحاب كافراً و قاتلاً ؟ – ايزابل . ومن حمل هيرودوس على قطع رأس يوحنا المعمدان؟ – هيروديا . ومتى تتدهور الممالك و تندك اساسات البيوت – ؟ عندما تفسد الامرأَة . لذلك تفهمون اهمية تهذيب المرأَة فهي العامل الاعظم في العمار والخراب

وكانت بداية تجربة الحية للمرأة قولها : ايقيناً قال الله لا تأكلا من جميع شجر الجنة . فأجابت المرأَة الحية : من ثمر شجر الجنة نأْكل واما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأْكلا منه ولا تمساه كيلا تموتا . فقالت الحية للمرأة : لن تموتا لان الله عالم أنكما في يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتصيران كآلهة عارفي الخير والشر. فكان هذا الجواب تجربة كبرة لغطرسة حواء وتطفُّلها في معرفة ما لا يعنيها ورغبتها في التلذّذ بهذه الثمرة المحرمة، وخصوصاً لرغبتها في أن تكون إِلاهة عارفة الخير والشر . هذه هي التجربة التي يقع فيها عصرنا، عصر الكبرياء، الذي يحاول ان يتأله ويريد أن يجرّب كل ما هو محرّم في الملذات وان يعبد المال عوضاً عن عبادة الله

فنظرت المرأَة إلى الثمرة ورأَتها منيةً للعقل، طيبة المأْكل، شهيةً للعيون، فعزمت أن تكون إِلاهة وان تستلذّ بأكلها وتتمتع برؤيتها . فمدّت يدها وقطفت الثمرة. فابتدأَت اثمها بالكبرياء وواصلته بالشهوة و أَنهته بالعصيان. فأخذت من الثمرة واكلت، واعطت بعلها ايضاً فأَكل، ولم ينظر آدم في اكله هذا لا إلى الثمرة ولا إلى جمالها، لم ينظر الاَّ إلى امرأَته

التي سحرته بلطف كلامها فآثر ارضاءَها على طاعة الله وشارك حواء في كبريائها وفي التمتع بأَكل الثمرة، فسقط وفضَّل ان يكون تعِساً معها على ان يكون في نعمة الله ومحبته

تلك هي التجربة. وقد خُيِّرَ ابوانا الاولان بين محبة الله والثمرة، ففضَّلا شهوتهما على محبة الله . ولذا لا نتعجب اذا كان القصاص هائلاً مريعاً . فالخطيئة هي تشويش ومخالفة للنظام. وكل مخالفة للنظام يجب ان تنال جزاءها . فماذا خسر آدم في هذه المعصية ؟– خسر محبة الله ، ونظام طبيعته، وملكه على العالم ،وعدم الموت

خسر آدم محبة الله ونعمته كما يخسر الضابط الخائن رتبته وشرفه وأَوسمته ويُطرد مع عيلته من خدمة ملكه، بعد أن أَضاع الحق على عطف مولاه وحسن مُعاملته له . فبعد أن فَضَّل آدم الخليقة على الخالق خسر محبة الله ورضاه ونعمته، واصبح عدوًّا له، فطرده الله من الفردوس، ونزع عنه كل ما خصَّه به من النعم . وهذه اكبر خسارة لحقت بالإنسان . فلْيكسبِ الانسان ما استطاع مال العالم وجاهه والحظوة عند الناس، فاذا فقد محبة خالقه فهو خاسر كل شيء، اذ لا شيء يقدر أن يسعدنا ما عدا الله

خسر آدم النظام الذي كان سائداً في طبيعته والكمال الذي يزيّن قواه . فضعف عقله وقصُر عن فهم الحقائق، وضعفت ارادته بإزاء فعل الخير وتضعضعت الميزانية الحاصلة بين النفس والجسد، واصبحت اهواؤه السفلية تقوده بسهولة أعظم إلى حمأَة الرذائل، واصبح الانسان في الغالب لا يميّز بين الخير الحقيقي والوهمي. يرى الرذيلة تدكّ صرح سعادته ومع ذلك يطوّح بنفسه فيها ؛ يلمس لمس اليد عواقب القمار الوخيمة ومع ذلك يُقبل بنهَمٍ

على القمار ولو كانت نتيجته خراب البيوت ؛يرى فساد الاخلاق والآداب مضرًّا بصحته، ومع ذلك يعرّض ذاته للأمراض والموت ولا يرتدع عن ارتياد مخاطر الرذيلة؛ يشعر بغضب يقوده إلى الجنون فيهيج لأدنى معاكسة؛ يرى بأُم العين عيلته تشقى وتذوي بسبب سوء سلوكه ولا يرعوي ... وما اكثر الجمعيَّات المفسدة للإنسانية، العاملة على هدم الفضيلة و نشر الضلال. ولا غروَ، فقد شوش آدم النظام الذي وضعه الله فبلبل بالفعل عينه النظام السائد في طبيعته، فاقتصَّت منه الطبيعة. وكان قصاصها عادلاً. لان الله لم يخلق الانسان على هذه الحالة من الاضطراب بل خلقه مستقيماً، خلقه للحياة. وخسر آدم بخطيئته، وهو مِلك الطبيعة حق الملك عليها . فقد حُكم عليه بان يأْكل خبزه بعرق جبينه : ((بما انك أَكلت من الثمرة التي نهيتك عن اكلها ، ملعونة الارض بسببك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك، بعرق جبينك تأْكل خبزك)) .هذا جزاء الخطيئة. فقد رفض الانسان ان يُقرّ بسيادة خالقه فالطبيعة رفضت هي ايضاً بدورها أن تقرّ بسيادته عليها . فالحيوانات التي كانت تُطيع صوت آدم اصبحت تهرب منه. والارض التي كانت مستعدة أن تقدم للإنسان كلَّ ما يشتهيه بفضلِ شغل لا يقتضي التعب، أصبحت لا تنبت الا الشوك والحسك بدون التعب. فإننا اذ نرفض الشغل وتجشُّم العناء زي الفاقة والشقاء يلحقان بنا. ولا تبقى لنا ملذة الا على قدر ما نُجهد أنفسنا في الحصول عليها . وما اكثر ما يتعب الانسان في الحياة لينال قليلاً من الراحة، لا بل في غالب الأوقات لا يجني ثمار تعبه، وبعد أن يكون الانسان قد أفنى حياته فجمع وبنى يأتي الموت فيمنعه من أن يذوق لذة الراحة في كِبره.

قد اخطأ آدم فحكم عليه بالموت ((بعرق جبينك تأكل خبزك إلى أن ترجع إلى الأرض التي أُخذت منها، لأنك تراب والى التراب تعود)). يا له من حكم هائل يأمر بفصل النفس عن الجسد وبإذلال الجسد الى حدّ التلاشي، إلى حدّ أن يرجع الى التراب، ويصير مأْكلاً للدود والحشرات، ويصبح مكروهاً بالموت حتى لدى أعز الأصحاب ! و يا لها من ساعة مرّة ساعة فراق النفس عن الجسد ، ساعة عراك هائل تحاول النفس فيها أن تفارق الجسد والجسد يدافع عن هذا الفراق . وبعد هزّات عنيفة يغلب الضعف على الجسد فيقرّ بعجزه ويبقى وحده جثة هامدة لا حراك لها . فالموت هو عقاب الخطيئة. وقد اشتركت ذرية آدم في هذا القصاص كما تشترك الأسرة التي خان رأسها مولاه وكما تجري المياه عِكرَة لخروجها من نبعٍ معكَّر مسموم

تلك هي الخطيئة الأصلية وعواقبها المرّة. بيد أن لنا وسيلةً لنعتاض قسماً خسرناه، بأكثر مما فقدنا . فان السيد المسيح، بموته على الصليب، قد أعاد لنا الحياة التي خسرناها ؛ واسترجع لنا نعمته؛ ووضع لنا وسيلة للحصول على هذه النعمة بالصلاة والاسرار كما سنبسطه في مواضيعنا الآتية . والأمل انه سوف يكون لنا من ذلك ملذات روحية تفوق كل ما نتألم منه في هذه الحياة، لان السيد المسيح، اذ جاء على هذه الأرض ، اخذ على نفسه أن يردَّ لنا الحياة وان يردها اغزر واوفر كما أتمناها لجميعكم بمنه تعالى و كرمه . آمين

الصلاة

خلقنا الله تعالى للحياة لا للموت، والموت من صُنع الخطيئة . فقد رأَينا أن الموت بسبب الخطيئة دخل إلى العالم، لكن رحمة الله ابت الاَّ ان ترجع الينا هذه الحياة، فقرّر عدل الله بأَن تعاقب الخطيئة عقاباً تامًّا . وبما أن الله هو المُهان بالخطيئة، وهو غير متناهٍ، قرّرت حكمة الله بأَن يتجسد الاقنوم الثاني من الثالوث الأقدس ليفي هذا الوفاء التام فجمت الحكمة الالهية بين العدل والرحمة وصار الخلاص عن يد ابن الله المتأَنس

وقد اراد ابن الله المتجسد ان يكون الخلاص بواسطة الآلام والصليب، على حسب ما أَلهم به الروح القدس الأنبياء. فقد كان كافياً للعدل الالهي أن يعمل السيد المسيح عملاً واحداً على الارض ليفي وفاءً فائضاً عن كل خطايا البشر؛ لكنه لمعرفته شرَّ إِهانة ابيه ويعرّفنا شرّ الإِثم أراد أن يختار موت الصليب وفاءً عن خطايانا . ولما صُلب السيد المسيح وقال آخر كلمة على الصليب ((قد تمّ))، تمَّ وفاء الخطايا عن البشر، وارتوى العدل الالهي، وحصل البشر على البرارة مبدئياً، واصبحت النعمة في متناول الجميع. وقد أَراد أن نشترك في الحصول على هذه النعمة فوضع لها وسائل ننالها بها، وهي الصلاة و الأسرار . فبوسع كل انسان ان يصلي لينال نعمة الله . ها نحن باسطون الكلام في مواضيعنا الآتية عن الصلاة و الأسرار. والآن نبحث في ضرورة الصلاة وشروطها لتكون فعَّالة في نفوسنا

أولاً : ضرورة الصلاة

ان الصلاة هي ارتفاع العقل والقلب نحو الله . وهذا الارتفاع ضروري : **1** تطلبه طبيعتنا و **2** يأْمر به السيد المسيح

1 صوت الطبيعة يأْمرنا بأَن نصلي : اننا اذا أَعملنا الرويّة قليلاً و تأَملنا في كمالات الله خالقنا الحافظ ايانا في كل لحظة في قيد الحياة، والخالق العالم لأجل مجده، فهمنا انه يجب ان يكون الغاية القصوى لكل أفكارنا واقوالنا وأعمالنا، وفهمنا ضرورة الصلاة وضرورة السجود لله، والشكر له، وطلب الاستغفار عن خطايانا، ووجوب التجائنا اليه في جميع حاجاتنا الروحية والزمنية

فالصلاة هي من مُقتضيات الطبيعة. لان الطبيعة تقضي ان نرفع عقلنا وقلبنا نحو الله . فمن الواجب على كل انسان أن يقوم بواجب السجود له. فان الله جعلنا خليقة ناطقة لندرك أعماله وهو لم يخلق العالم الَّا لمجده ولا يقدر أن يتخلَّى عن هذه الغاية . فلأَنه الاله لا يقدر أن يعطي المجد لآخر سواه ولا يقدر الانسان أن ينكر كمالات الله الا اذا كان زنديقاً كافراً قد وصل به العمى الروحي الى العجز عن الارتقاء من كمالات الخلائق المنظورة إلى كمالات خالقها غير المنظور

فهل يقدر الانسان ان يرى جمال السماوات، بما فيها من النجوم والسيارات بعدد لا يحصى وبأجرام مختلفة ، وهي تدور بسرعة هائلة وترتيب مدهش ولا يقول : سبحانك اللهمَّ يا إله النور والنظام ما أعظم أعمالك ؟

وهل يقدر أن ينظر إلى البحر وعظمته، ويتأمل في تلاطُم الأمواج المستمر، وفي الأسماك العديدة التي يعولها الله في قلب البحار ويشاهد الوانه المختلفة المتجددة في كل حين، وتلك الحركة الدائمة في هدير المياه، ولا يقول : سبحانك اللهمَّ ما أعظم أعمالك كلها بحكمة صنعت ؟

هل يقدر الإنسان أن ينظر إلى المعادن وانواعها، والى النبات وما يحوي من اجناس الأزهار والرياحين والبقول والفواكه، او ان ينظر إلى الحيوان وكثرة انواعه وما فيه من المنافع العديدة ، والى طيور السماء التي لا يحصيها عدد، والله يعولها كلها، ولا يقول: سبحانك اللهمّ، سبحان عنايتك المهتمة بالأشجار الباسقة في اعلى الجبال وبالزهرة الصغيرة النابتة في نخاريب الصخرة وفي اسفل الأودية ؟

وإذا تأملنا في العالم الصغير الذي هو الانسان وما فيه من جمال التركيب ، وهو ملك الخليقة، رأينا فيه عجائب الله. ففيه تجتمع الحياة النباتية والحيوانية والعقلية. وقد زاده الله كمالاً بإعطائه النعمة، حياةً الهية بنوع يفوق كل ادراك. كيف ندرك ذلك كله ولا نجثو امام الخالق الحكيم الكلي القدرة ونسجد له خاشعين ؟

هل نرى كل هذه العجائب وغيرها في ما حولنا ولا نسجد لفعل الله وترتيبه وقدرته وجماله وباق كمالاته، أو نبقى امامها كالحيوانات العُجم او كالصخرة الصماء؟

فصلاة الحمد تقتضيها الطبيعة، وصلاة الشكر من مقتضيات الطبيعة ايضاً . فهل يجوز لنا أن نتمتع بكل ما خلقه الله لأَجلنا من الخيرات الزمنية، كخلقه لنا وحفظه ايانا في قيد الحياة وصيانتنا من مخاطر عديدة، ولا نشكره على كل هذه النعم الغزيرة التي لا يزال يفيضها علينا؟ فما اشدنا نكراناً للجميل أن لم نشكر لله كل هذه النعم

وما عدا هذه النعم المادّية نعم روحية لا تُقدّر. فهل يجوز لنا اهمال الشكر لله الذي ارسل ابنه الوحيد على الأرض لأجلنا، وعلَّمنا طريق الخلاص، ومات ليفدينا، وأعطانا جسده ودمه غذاءً لنفوسنا، وصعد إلى السماء ليُعدَّ لنا مكاناً ويشركنا في سعادته

وعلاوةً عن صلاة التسبيح والشكر، اليس لنا نعم نلتمسها الله؟ ألا يحتاج عقلنا إلى نور ليرى الحقائق السامية ويزداد فهماً لها ؟ وقلبنا ألا يحتاج إلى قوة ليبتعد عن طريق الفساد ؟ هل جسدنا، بكل ما هو معرَّض له من الأمراض، غير محتاج الى مساعدة سماوية ؟ وهل كلُّ ما ينتابنا من الاحزان وما يدهمنا من المصائب لا يضطرنا إلى طلب مددٍ سماوي ؟ أفليس علينا واجبات صلاة نحو نفوس عزيزة في المطهر فضلاً عن نفوس مجهولة منقطعة ليس لها من يصلي لأجلها على الأرض؟

وما هي صلواتنا وابتهالاتنا لارتداد الخطأة إلى التوبة، تلك النفوس التي مات المسيح لأجلها ؟ أو ليس علينا خطايا ثقيلة اعترفنا بها ولم نكفر عنها التكفير الكافي، ولم نوفِ

ديوننا حتى الآن، وهي تجعلنا في حاجة إلي دموع غزيرة نذرفها كدموع المجدلية لكي لا نحاسب عنها ؟ وما اكثر الحاجات اليومية التي يجب أن نطلبها في صلواتنا ولا يهبها الله لنا الاَّ بالصلاة! وقد ذكر السيد المسيح بعض الأمراض الروحية وقال انها لا تخرج الاَّ بالصلاة و الصوم . فالصلاة هي إذن ضرورية والشعوب كلها في كل زمان ومكان قد شعرت بضرورتها وصوت الطبيعة يأمرنا أن نصلّي

2 وصوت الله يأمرنا بأن نصلِّي : فالسيد المسيح، الذي هو الاله العارف ما هي حاجاتنا، أَمَرنا بأَن نصلي بقوله : ((اسأَلوا تعطوا. اطلبوا تجدوا . اقرعوا يفتح لكم . فان من يطلب يجد ومن يقرع يفتح له)) . وأَمرنا بان نصلي دائماً : ((صلوا ولا تملوا)) ؛ ووعدنا بأن كل ما نطلبه في الصلاة باسمه ننالـه : ((الحق اقول لكم ان كل ما تسأَلون الآب باسمي تنالونه)). وهو يلوم الرسل لكونهم لا يصلون : ((إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي)). وقد أَفهمهم ان الصلاة هي دائماً نافعة واعطاهم مَثَل القاضي الظالم، ذاك القاضي الذي لم يكن يخاف الله ولا يخشى البشر، وقد لبَّى طلب المرأَة التي كانت تلحّ عليه بطلبها وقال لهم : ((اذا كان قاضي الظلم قد سمع تضرُّع المرأة لأجل لجاجتها، فكم بالحري ابوكم السماوي يعطي الصالحات لمن يسأله)). لاسيما وقد علمنا اننا محتاجون إلى الله في كل أمر، قال : ((بدوني لا تستطيعون ان تعملوا شيئاً))

وضرورة الصلاة هذه قد علمنا اياها السيد المسيح بوعظه، وعلَّمنا اياها ايضاً بأَمثاله . فقد ابتدأَ رسالته الالهية بالصوم والصلاة اربعين يوماً و اربعين ليلة. ويذكر الانجيل المقدس

مراراً أَنه كان يقوم سَحراً باكراً جدًّا ليصلي. وقد صلّى قبل أن يختار رسله . وصلَّى ليلة العشاء السرّي . وصلَّى لأجل رسله ليبقوا متحدين. وصلَّى في بستان الزيتون وهو ينازع. وعلمنا كيف نصلي فترك لنا تلك الصلاة الربية الحاوية كل كمالات الصلاة

ثانياً : شروط الصلاة الفعالة

فصوت الله اذن وصوت الطبيعة يفرضان علينا معاً ضرورة الصلاة . ولكن لكي تنال الصلاة مفعولها لا بدَّ أن تستوفي بعض الشروط . فمن واجبات طالب نعمة الله أن يكون متواضعاً، على مثال العشَّار الذي قرع صدره وقال: يا الله اغفر لي انا الخاطئ، ليستحق أن ينال رحمة الله لأن القلب المنسحق المتواضع لا يرذله الله

وعلى الطالب أن يسعى في تنقية ضميره ليكون مقبولاً من الله. فبأَية جسارة نتقدم امام اله القداسة والطهارة بقلب غير طاهر ؟

ومع التواضع والندامة على الخطايا يجب الثبات في الصلاة، على نحو ما عمل الاعمى في اريحا اذ اخذ يصرخ ولم يسكت حتى نال مراده ؛ وعلى نحو ما عملت المرأة الكنعانية وهي تطلب الشفاءَ لابنتها، حتى مَلَّ التلاميذ وقالوا ليسوع: اطلقها فإنها تصيح في إِثرنا . فأَخذ يجرّب السيد المسيح ثباتها وتواضعها فقال لها: ((ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب)). فأَجابت:((نعم يا رب، ولكن الكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط مائدة اربابها)). حينئذٍ نالت الكنعانية أعجوبة الشفاءِ. فقال لها المسيح: ((عظيم ايمانك يا امرأَة. فاذهبي وليكن لكِ ما اردتِ))

واحياناً يمتحن الرب ثباتنا ليمتحن ايماننا راغباً أن نزداد حرارة في تضرّعنا. فإننا نرى كثيرين لم ينالوا النعمة المطلوبة الا بعد صلاة دامت أياماً و اكثر من ذلك

ويجب أن تكون صلاتنا مقرونة بالإيمان . فقد قال لنا السيد المسيح: ((لو كان لكم ايمان قدر حبة الخردل، لقلتم لهذا الجبل انتقل واهبط في البحر فينتقل ولا يعسر عليكم شيء)). ليكن لنا ايمان نازفة الدم التي قالت في نفسها : ((إن انا لمست طرف ثوبه برئت)). وليكن لنا ايمان قائد المئة القائل : ((يا سيدي قل كلمة فيبرأ فتاي)). وليكن لنا ايمان الأبرص القائل : ((يا سيدي ان شئت فانت قادر أن تطهرني)).

ولا نـكتفِ بأَن نطلب الماديات في صلواتنا فالله غير مطلوب منه أن يلبّي رغائبنا كـلها. فهو يعطينا دائماً ما هو ضروري لخلاصنا. وما عدا ذلك فهو أَعرف منا بما هو نافع لنا. بل انه يرغب أن نفضل الخير السماوي على الخيرات الأرضية. وقد قال: ((اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، والباقي يزاد لكم)).

وخير مثال لنا في الصلاة صلاة السيد المسيح في بستان الزيتون اذ كان يناجي أباه قائلاً : ((يا أبتاه، إن كان يستطاع فلتعبر عني هذه الكأس ولكن لا تكن مشيئتي بل مشيئتك)). فيجب في صلاتنا قبل كل شيء أن نكون مستعدين لقبول مشيئة الله وإتمامها.

ويجب، لكي تستجاب صلاتنا، أن نحسن العمل ونقرن الصلاة بالفعل. ((فليس كل من يقول يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات بل الذي يعمل ارادة أبي الذي في السماوات)) . فالعمل إذن هو ايضاً صلاة ومن يحسن القيام بواجبه فهو يصلّي احسن صلاة. واذا كنا

دائماً نتقن العمل لمجد الله، فنحن نكـون في صلاة دائمة :وهذا هو سر حياة القديسين . وعلى هذه الصفة تتحوّل اعمالنا كلها الى صلاة ونعش متحدين مع الله، وتكون حياتنا كلها مقدسة . فاذا قرنَّا الصلاة بالعمل تتم فينا مشيئة ابينا السماوي ونكون كاملين ونستحق أن نحظى بالمجد الأبد المعدّ لنا. آمين

الأسرار

ذكرنا سابقاً ان الله خلق آدم في حالة البرارة. وقد خسر هذه البرارة بالخطيئة الأصلية، وفقد معها المواهب الفائقة الطبيعة. لكن الله، بفضل رحمته، اعاد له الحق في استرجاع النعمة بوسائل تفوق الادراك : فتأَنس ابن الله ليكفِّر عن الخطيئة تكفيراً تاماً، واراد ان يكون هذا التكفير بالموت على الصليب .فهذه البرارة التي استرجعها لنا السيد المسيح هي النعمة. والنعمة هي عطية الهية تبرِّرنا وتقدسنا، وتجعلنا نعيش عيشة أَعلى من العيشة الأرضية، اي عيشة سماوية إِلهية ، بممارسة فضائل الايمان والرجاء والمحبة

ولكن النعمة التي استحقها لنا السيد المسيح قد قرَّر أن تُعطى لنا عادةً بواسطة الاسرار التي أَسسها في كنيسته. ولسنا نعني بذلك أن الله، جلَّت قدرته، لا يقدر أَن يعطي هذه النعمة بدون الأسرار . فهو يقدر أن يهبها بدون واسطة ولا علامة خارجية، لأن قدرة الله غير محدودة ؛ ولكنه أَراد أَن تكون وسائل الخلاص موافقة لطبيعتنا. فإننا لسنا ارواحاً مُجردة بل نحن خلائق مركبة من نفس وجسد. لذلك أراد الله أن يمنحنا نعمته بواسطة علامات حسية خارجية ، كما انه أراد أن يظهر لنا بهيأَة البشرية في شخص المخلص . فهو ابن الله المتأنس قد حدد لباقي الاجيال وسائل الخلاص، ومنح النعمة بواسطة الأسرار واخرج من قلبه الأقدس ينبوع ماء ينبع الى الحياة الأَبدية، وجعل الأَسرار نظير قناة تجري

فيها النعمة. فمن الواجب أن أوضح لكم أولاً : ما هو السر، ثانياً : عدد الأسرار، ثالثاً : مفعول الأسرار

أولاً : ما هو السر

السر بوجه عام حقيقة اوحاها الله وهي تفوق ادراك عقولنا . وليس في هذا التحديد ما نعنيه عندما نتكلم على الاسرار السبعة .فالسر المقصودة معرفته هنا هو في عُرف المسيحيين رمزٌ لشيء مقدس او علامة دالة على شيء مقدس. ثم تحوَّل معناه إلى واسطة لتقديس النفوس. وهوذا تحديد السر الحقيقي : السر علامة حسية رسمها السيد المسيح لتولد فينا النعمة وتقدسنا

نقول أن السر علامة حسية، أي علامة تقع تحث حواسنا وهي رمز لا نراه . وهذا ما يكثر استعماله في عوائدنا : فالكلام علامة تدل على الفكر، ولبس الحداد علامة تدل على الحزن، والعلَم عنوان الوطن، والضحك علامة الفرح، والبكاء علامة الكآبة، وحياتنا مركبة من علامات حسية نستعملها كل يوم. فاذا كنا نستعمل هذه العلامات الحسية لنعبّر عن افكارنا وعواطفنا وحالاتنا النفسية المختلفة، فلا عجب اذن اذا استعمل الله، جلَّت حكمته، بيننا علامات حسية لكي يوصل الينا نِعَمه.

واذا كان الكلام هو أَدهش علامة نستعملها لنعرب عن افكارنا أَفليس بديهيًّا أن يتخذ الله هذه العلامة لكي يمنحنا النعم ؟ فالسيد المسيح هو كلمة الآب ، والكون كله صادر من نُطقِ

الله. فقد قال للعالم كُن فكان، فلا عجب اذا كان الله اعطى الكلمة في بعض الظروف قوةً فاعلية وجعلها ، وهي مقترنة بعنصر آخر حسيّ، وسيلة ليهب النعمة للنفوس

واللاهوتيون يرون في هذه العلامة الحسيَّة عنصرين : الاول حسي خارجي وهو علامة السرّ، والثاني غير منظور وهو علامة النعمة الحالَّة في النفس. والجزء الحسِّي في السر يُقسم ايضاً إلى قسمين : قسم يسمَّى المادة، وهو الشيء المستعمل في السر، وقسم آخر آتٍ من الالفاظ المذكورة في السر، ويُدعى الصورة . فالمادة في سر العماد مثلاً هي الماء، والصورة هي العبارة المستعملة للعماد، والمادة والصورة حدّدها السيد المسيح ولو بوجه عام عند تأْسيس السر، ولا يتم السر الا باتحاد المادة مع الصورة . ومن ثَمَّ نرى ضرورة عدم احداث التغيير في المادة والصورة اللتين رسمهما الرب. واذا تَغير فيهما شيء جوهري بَطُل السر

فالمادة والصورة في الاسرار هما العلامتان الحسيتان في كل سرّ . وقد حافظت عليهما الكنيسة في جوهرهما ولم تغيرهما في الشرق والغرب. فهما الآن في القرن العشرين كما كانتا عند الاجيال المسيحية الأولى، على ما نراه في بيعة الديناميس، حيث نرى اجران المعمودية واشكال الخبز والخمر إلى غير ذلك من علامات الاسرار

فاذا اتضح ذلك صح لنا أن نقول في تحديد السر :انه علامة حسيَّة رسمها السيد المسيح لتمنحنا النعمة وتقدس نفوسنا. فلكي تتم شروط السر يجب أن يكون علامة رسمها السيد المسيح وفيها مادة وصورة وضعهما السيد المسيح مباشرة أو بواسطة الكنيسة . فالله وحده

يقدر ان يعطي الجماد والكلام قوة لتوليد النعمة . فليس للماء والكلام في المعمودية أن يطهِّرا النفس، لو لم يضع السيد المسيح فيهما هذه القوة. وقس على ذلك باقي الاسرار

وسنرى حكمة السيد المسيح في اختيار المادة والصورة لجوهر السر . وقد تسلم الرسل الاسرار من السيد المسيح . والرسل سلموا هذا الارث إلى الكنيسة التي حافظت عليه مدى الأجيال

واذا كنا لا نجد في كلام المسيحيين الأولين كل الأقوال الواضحة عن الاسرار، فذلك لأنهم كانوا في وسط وثني، وكان يُحظِّر عليهم التحدث عن الأسرار، عملاً بقول السيد المسيح: ((لا تلقوا جواهركم امام الخنازير لئلا تدوسها بأَرجلها وترجع فتمزقكم))

ثانياً : عدد الأسرار

ان الكنيسة الكاثوليكية تعلن وجود سبعة أَسرار رسمها السيد المسيح. والكنيسة الشرقية متفقة على هذا العدد مع الكنيسة الغربية . وقد حدَّد المجمع التريدنتيني وجوب الايمان بسبعة اسرار، فقال ((مَن ادَّعى أَن هذه الاسرار هي اكثر ام اقل من سبعة فليكن محروماً)). واختيار الله لهذا العدد وجعله الاسرار سبعة هو حكمة إِلهية : وهي كلها ضرورية لحياة الانسان الروحية ،مبنيَّة على نظام الطبيعة . فالنعمة تكمل الطبيعة ولا تهدمها. وهذا هو نظام طبيعة الانسان في حياته الفردية والاجتماعية : فلكي يصِل الانسان الى غايته يجب أن يولد ثم ينمو ثم يتقوى، ومن ذلك الولادة والنمو والغذاء . واذا اعتراه مرض فهو في حاجة إلى الدواء للشفاء. وهذه هي حالة النفس لكي تصِل إلى غايتها الفائقة الطبيعة

تولد النفس لحياة النعمة في سر المعمودية وهي الولادة الروحية . وتنمو وتتقوّى بواسطة التثبيت الذي به تثبت في الايمان وتنال مواهب الروح القدس . ثم أن هذه الحياة الروحية تحتاج إلى غذاء روحي يكون قوت النفس . فكما أن الجسم يحتاج إلى الخبز اليومي كذلك النفس تحتاج إلى سرّ يغذيها وهو سر الإفخارستيا .وفيه تنال غذاءَها وحياتها . واذا احدقت بالنفس تجارب وسقطت بسبب ضعفها في الخطيئة التي تضعفها او تعدمها القوة او تقتلها، فهي في حاجة إلى دواء روحي لينقذها ويشفيها ويرجع اليها الحياة . و هذا الدواء نراه في سرّ رسمه السيد المسيح وهو سرّ التوبة . فهو يمحو خطيئة التائب ويشفيه ويرجع اليه الحياة في حالة فقدها

ولما كانت النفس التائبة لا تزال فيها آثار الخطيئة فهي تشعر بضعفها خصوصاً في حالة المرض الثقيل وعند دنوّ الموت وترتجف لدى ذكرها هذه الخطايا أَمام منبر الديان الرهيب . فالسيد المسيح قد وضع لها سرًّا يساعدها على هذا الجهاد العنيف ويعطيها الراحة والهدوء لتمثل أمام منبر الديان الرهيب طاهرة من دَرَن الخطيئة. وقد تحملت اوجاعها بصبر واعدّت نفسها للحصول على الحياة الأبدية

هذه الاسرار الخمسة تصحب حياة الانسان الفردية من المهد إلى اللحد وتحمي حياته الروحية من كل الأخطار

بيد أن الحياة الروحية الاجتماعية تحتاج هي أيضاً إلى نعم خاصة تسندها . وهذا ما يتمّ لها بواسطة سرَّي الكهنوت والزواج. فكما أن الشعب يحتاج إلى حكومة تقوده إلى غايته

الزمنية التي بها السعادة، ويحتاج إلى سنَّة تساعده على نموّ الجنس البشري هكذا وجب في الحياة الروحية ان يكون سرّان معدّان لإنماء عدد المخلَّصين وقيادة النفوس إلى غايتها القصوى الفائقة الطبيعة. فسرّ الكهنوت يقدم للمؤمنين الرؤساء الذين يقودونهم إلى غايتهم الأخيرة في سبل الخلاص. وسرّ الزواج، بتقديس اقتران الرجل والمرأة، سهل عليهما حمل صعوبات الحياة ويبارك اتحادهما لتكثير أبناء الله الحقيقيين بولادة البنين وتربيتهم تربية صالحة مقدسة تليق بالمدعوين الى السماء.

فعلينا اذن أن نسبح حكمة الله في رسمها هذه الاسرار السبعة. فالأسرار سبعة في العدد كما أن الفضائل الالهية الرئيسية سبعة، ثلاث إلهية واربع ادبية، وكما أن المنارة التي كانت تضيء امام قدس الأقداس كان لها سبعة مصابيح، وكما أن أَلوان النور وقوس القزح سبعة، وكما ان نغمات الموسيقى سبع. ولا يتم الطَّرَب الاّ بوجود النغمات السبع. فهذه الأسرار موزّعة على كل أطوار الحياة ومُعَدَّة لإسناد النفوس ومساعدتها في جميع احتياجات حياتها الفردية والاجتماعية

على ان الاسرار التي هي كلها ضرورية ونافعة وكلها تستحق احترامنا، ليست كلها متساوية في الرتبة والمقام . فترتيبها الطبيعي هو، كما يسرده المجمع التريدنتيني، على هذا النمَط : المعمودية والميرون والافخارستيا والتوبة و مسحة المرضى ودرجة الكهنوت والزيجة. بيد أننا إذا اتبعنا ترتيب الأهمية فيها، فالافخارستيا تفوقها جميعاً بمقدار ما يفوق المعطي العطية والمنعم النعمة. لان السر يحتوي النعمة والافخارستيا تحوي إله النعمة . ان في

الافخارستيا تجديد ذبيحة الصليب : ((كلما تأكلون من هذا الخبز تخبرون بموت الرب إلى أَن يأتي))؛ وفي الافخارستيا الاتحاد مع المسيح كما ان الاب مُتحد مع الابن : ((من يأْكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وانا فيه . كما ارسلني الآب الحيّ وانا احيا بالآب، فالذي يأْكلني يحيا هو ايضاً بي ... من يأْكل هذا الخبز فانه يعيش إلى الابد)). والافخارستيا عربون القيامة : ((من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبدية وانا أقيمه في اليوم الأخير)). ومن بعد هذا السر الذي يكسف نوره باقي الأسرار نستطيع أن نورد سائر الأسرار من حيث الأهمية، بالترتيب التالي: الكهنوت ثم المعمودية، فسر الميرون، فالذبيحة، فالزيجة، فمسحة المرضى، واخيراً التوبة :

ثالثاً : مفعول الأسرار

ان الغاية من الأسرار اعطاء النعمة وتقديس النفوس. فاثنان منها يعطيان حياة النعمة لمن ليست هذه الحياة فيه، وهما المعمودية والتوبة وهما يُدعَيان لذلك سرّي الموتى. والاسرار الخمسة الباقية، التي تُدعى اسرار تدعى اسرار الأَحياء، تعطي نعمة خاصة بالسرّ وتزيد النعمة الحالّة في النفس . وثلاثة أسرار تَسِم النفس بوسم لا يُمحى إلى الأبد ولا تُعطى الاَّ مرة واحدة : وهي المعمودية، والميرون، والكهنوت

واذا انعمنا النظر في تركيب السر رأَينا أن الله يستخدم آلات ضعيفة ليخرج منها قوّة عظيمة. ولا عجب في ذلك، فان الانسان يستعمل الماء أَيضاً فيخرج منه قوّة مدهشة. فهذا الماء الدافق الهادئ اذا غليته في مِرْجَل فهو يفور الى درجة يقدر بها أن يقود مراكب عظيمة

تسير في البحار كالأطواد، وهو يدير الآلات العظيمة . كذلك يستخدم السيد المسيح وسائل ضعيفة ليعمل بها عجائب

وكما أن الريشة اذا استعملها ولد صغير ليرسم بها على قماش لا تعطي هيأة مرضية، ولكن اذا تناولتها يدُ صانع ماهر مصوّر فهو يرسم المشاهد المدهشة والصور الساحرة الالباب، هكذا ينتقي الرب وسائل ضعيفة وبقوَّته الالهية يجعلها واسطة لعجائبه ولتقديس النفوس

وهنا يحق لنا أن نردّد كلام السيد المسيح: لو كنتم تعرفون عطية الله، لكنتم تطلبون فيعطيكم ماءً حياً

فهوذا الآن بين ايدينا، ايها المؤمنون، قناة النعمة والحياة. وهي مقدَّمة لنا، موضوعة تحت تصرّفنا . فمن يبقى منَّا ميِّتاً بعيداً عن حياة النعمة ليس له أن يلوم الاَّ نفسه. أَجل، لنتقدّم ونستقِ بسرور مياه الحياة من ينابيع المخلص. ولنشكر له تعالى ما انعم به علينا من وسائل التقديس والخلاص، ولننتفع منها جهدَ طاقتنا. حتى اذا ارتوينا من مياهها العذبة الفائضة في هذه الحياة، تنبع فينا انهاراً للحياة الابدية . آمين

رسم الأسرار

قلنا في تحديد السر أن السيد المسيح رسم الأسرار . فيجب ان نكون راسخين على مبادئ متينة في هذا الأمر، لنعرف أن ندافع عن عقائد ايماننا تجاه روح التمرّد والالحاد في هذا العصر. فالكنيسة تعلِّمنا أن السيد المسيح رسم الاسرار، وهي تقطع من جسمها كل عضو لا يؤمن بهذه الحقيقة. فقد قالت في المجمع التريدنتيني : ((ان قال احد ان اسرار العهد الجديد لم يرسمها السيد المسيح، وانه يوجد اكثر او اقلّ من سبعة اسرار اعني المعمودية و الميرون و الأفخارستيا والتوبة و مسحة المرضى والكهنوت والزيجة، أو قال أن احد هذه الاسرار ليس سرًّا حقيقيًّا، فليكن محروماً))

فماذا نعني اذن برسم السيد المسيح للأسرار ؟ – نعني بذلك ان السيد المسيح رسم الاسرار هو بنفسه، وحدَّد مفعولها بتعيين النعمة التي تمنحها. لكنَّه ترك الحرية للرسل بأَن يحدّدوا طريقة توزيعها وترتيب الصلوات فيها. فالسيد المسيح قد اسَّس الجوهر وترك العرض للرسل، ليحدّدوه بحسب ظروف الزمان والمكان . فمنحهم سلطة اختيار وتعيين الصلوات الموافقة ليزيدوا السر خشوعاً ويدعوا المؤمنين إلى الوقار

فالكنائس الشرقية والغربية متفقة في الجوهر، وان يكن بينها في طريقة توزيع الاسرار بعض الفروق . فالاختلاف في طريقة التعبير عن الفكر وهو غالباً في الالفاظ

والتاريخ يؤيد التعليم اللاهوتي بان السيد المسيح رسم الاسرار كلها، وان لم يظهر ذلك دائماً في الانجيل المقدس . فان الانجيل ليس هو المصدر الوحيد لعقائد الايمان كلها . لان السيد المسيح لم يقل للرسل: اذهبوا واكتبوا الانجيل، بل قال لهم : ((اذهبوا وعلِّموا)) . ولم يكتب كل شيء في الانجيل، بدلالة ما قيل فيه : ((واشياء أُخر كثيرة صنعها يسوع لم تكتب كلها واحدة فواحدة، ولو كُتبت لما ظننت أن العالم نفسه يسع الصحف المكتوبة)). فما يعلِّمه الرسل هو تعليم السيد المسيح. ولو علَّم رسول خلاف ما تسلمه الجميع من السيد المسيح لاعترض عليه الجميع. والحال اننا لا نرى ذكراً في التاريخ يؤكد لنا أن احد المسيحيين اخترع سرًّا، وان المسيحيين لاحظوا ذلك

و البرهان على أن الرسل لم يخترعوا الاسرار بل كانوا يعدّون انفسهم موزعين لها، انما هو في كلام القديس بولس القائل في رسالته إلى أهل كورنثس : ((قد اخبرني عنكم ايها الاخوة اهل كَلْوَة أن بينكم خصومات، اعني ان كل واحد منكم يقول : أَنا لبولس، او أَنا لأبلُّوس، او أَنا لكيفا، أو أَنا للمسيح. أَلعلَّ المسيح قد تجزَّأَ ؟ أَلعلَّ بولس قد صلب لأجلكم، او باسم بولس اعتمدتم ... فمن ذا بولس أَو من ذا أَبلُّوس ؟ إِنهما خادمان آمنتم على ايديهما. وإِن لكليهما قدر ما اعطاه الرب. فليحسبنا الانسان كخدَّام المسيح ووكلاء اسرار الله وانما يُطلب هكذا في الوكلاء ان يوجد كلٌّ منهم اميناً)). فاذا نظرنا إلى كل سر بمفرده وجدنا الفحوى ذاتها : أن الرسل ليسوا الاَّ خدَّاماً للأسرار وان السيد المسيح هو راسمها

و سترى ذلك في كل سر

أولاً : المعمودية

ان الرسل القديسين أَطاعوا أمر السيد المسيح القائل : ((اذهبوا وعلموا كل الأمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس)). فمن الواضح الجلي ان السيد المسيح رسم هذا السر بعد ما اعطى المثل في قبول العماد. وقد رسم طريقة هذا السر بنوع أن من لا يُعمَّد باسم الآب والابن والروح القدس لا يكون عماده صحيحاً. والرسل حافظوا على هذا الامر ورأوا أن العماد ضروري لكل انسان ليكون مسيحيًّا . لذلك نرى القديس فيلبس في اعمال الرسل يعلِّم وزير ملكة الحبشة على الطريق بين القدس وغزة؛ وبعد أن سمع الوزير التعليم قال لفيلبس : هوذا ماء فما المانع من ان اعتمد ؟ فقال له القديس فيلبس، ان كنت تؤمن بكل قلبك يجوز . فأجاب قائلاً : أني أُومن أَن يسوع المسيح هو ابن الله. فعمَّده القديس فيلبس

ثانياً : الافخارستيا

وليس رسم السيد المسيح لسر الإفخارستيا باقل وضوحاً . فالانجيليون القديسون، بعد أن ذكروا رسم سر الافخارستيا في العشاء السري مع كل ما فيه من التفاصيل، قالوا: ان السيد المسيح أمر تلاميذه قائلاً : ((اصنعوا هذا لذكري)) . وقد أتمَّ الرسل والمسيحيون الاولون هذا الامر . فكان المسيحيون يجتمعون ليصلّوا ويتناولوا الافخارستيا من يد الرسل

وكانوا مواظبين كل يوم على كسر الخبز. فإذا كانت هذه العادة التي تؤَيدها الحجج القديمة كلها لا تبرهن أن يسوع هو مؤسس هذا السر مباشرة فلا يبقى في التاريخ شيء يُعَوَّل عليه

ثالثاً : سر التثبيت أو الميرون

إذا نظرنا إلى رسم سر التثبيت نلاحظ أن الرسل لم يكونوا يكتفون بعماد الوثنيين واليهود المهتدين إلى الإيمان، بل كانوا يهتمون بإعطائهم الروح القدس بوضع الايدي . وكانت هذه الحفلة مختلفة عن سر العماد ومتممةً له. ولما القى القديس بطرس خطابه يوم العنصرة سأله سامعوه : ماذا ينبغي أن نعمل؛ فقال لهم : توبوا وليعتمد كلٌّ واحد منكم باسم يسوع المسيح لمغفرة الخطايا . فتنالوا موهبة الروح القدس. واننا نرى مراراً في سفر اعمال الرسل ذكر هذه الوصية و كيفية تنفيذها . من ذلك ما نقرأه في سفر الأعمال أَن ((لَمَّا سمع الرسل في اورشليم أن أهل السامرة قبلوا كلام الله ارسلوا اليهم بطرس ويوحنا فانحدرا وصلَّيا من أجلهم لكي ينالوا الروح القدس لأنه لم يكن قد حلَّ على احد منهم، سوى أنهم كانوا قد اعتمدوا باسم الرب يسوع فوضعا حينئذٍ ايديهما عليهم فنالوا الروح القدس)) (اعمال الرسل 8: 14- 17)

وفي أفسس بعد أن اعتمد المؤمنون باسم الرب يسوع وضع بولس يديه عليهم فحل الروح القدس

فمحافظة الرسل على اعطاء موهبة الروح القدس كانت لإتمام وعد السيد المسيح الذي وعدهم بإرسال الروح القدس، وكانوا يرون ضرورة حلوله عليهم وعلى كل من يعتمد باسم معلمهم الالهي . فهذا الوعد دلالة على أن السيد المسيح قد رسم سر التثبيت وان الرسل بمحافظتهم على هذه الطريقة قد اتموا ما أُمروا به

رابعاً : سر التوبة

كان السيد المسيح يهتم بشفاء النفس اكثر مما بشفاء الجسد . لذلك نسمعه يقول للمخلّع قبل ان يشفيه : ((مغفورة لك خطاياك)). وقد تشكَّك الفريسيون من هذا الكلام. فقالوا من يغفر الخطايا الاَّ الله وحده. فبرهن لهم السيد المسيح انه هو الله الغافر الخطايا بإثبات كلامه بالعجائب . ولقد أصابوا بقولهم ان الله وحده يغفر الخطايا . لذلك أثبت غفرانه للخطايا بأعجوبة . فقال لهم : ((لكي تعلموا ان لابن البشر أَن يغفر الخطايا)) حينئذٍ التفت إلى المخلع وقال له : ((قم احمل سريرك واذهب)). فهذه السلطة التي للابن قد أعطاها الابن نفسُه لرسله بقوله لهم : ((كلّ ما حللتموه على الارض يكون محلولاً في السماوات وكلّ ما ربطتموه على الأرض يكون مربوطاً في السماوات ... خذوا الروح القدس. من غفرتم خطاياهم تغفر لهم، ومن امسكتموها عليهِم تمسك)) (يوحنا 20 :22). فبإعطاء السيد المسيح سلطان غفران الخطايا رسم سر التوبة وحدد للرسل كيفيّة منحه للمؤمنين، إذ لا حلَّ للخطايا إلا بعد معرفتها، ولا تُعرَف الخطيئة الاَّ بالاعتراف، كما سنبيِّنه في أوانه

خامساً : مسحة المرضى

ان السيد المسيح الذي كان يهتم في عجائبه بشفاء النفس والجسد رسم سرًّا لهذه الغاية . فقد ذكر القديس يعقوب صريحاً في رسالته مفاعيل هذا السر بقوله : ((هل فيكم مريض فليستدعِ كهنة الكنيسة وليصلوا عليه ويمسحوه بالزيت باسم الرب فان صلاة الايمان تخلّص المريض، والرب يشفيه، وان كانت له خطايا تغفر له)). واذا كانت عبارة الرسول وحدها لا تكفي للبرهان على وضع هذا السرّ من قبل المخلص، فتعليم الكنيسة منذ البدء وسلوكها يشهدان بصحة هذا المعتقد. وهذا يكفي لمن ثبَتت عندهُ الوهية الكنيسة وعصمتها في بيان عقائدها

سادساً : الكهنوت

أفادنا الانجيل المقدس ان السيد المسيح صلَّى الليل كله قبل أن يختار الرسل . ولشدة اهتمامه برسالتهم وعدهم أن يكون معهم ومع خلفائهم كل الأيام إلى منتهى الدهر . وقد فهم الرسل السلطة المعطاة لهم، فرسموا أساقفة وكهنة وشمامسة بوضع الأيدي عليهم. واذا اردنا أَن نعرف اعتقادهم بنعمة الكهنوت فلنسمع القديس بولس مخاطباً القديس تيموثاوس ((في رسالته الثانية 1 :6) ((اذكِّرك أن تذكّي موهبة اللّه التي فيك بوضع يديَّ)). فالكهنوت هو أساس كنيسة السيد المسيح. وإِن لنا في امر السيد المسيح لرسله بأن يقدسوا الخبز والخمر ويحولوهما إلى جسده ودمه ذكراً لما فعلهُ هو في العشاء السري، وفي منحه لهم سلطان ترك

الخطايا هو نفسُهُ سرّ الكهنوت المقدس الذي به يصبح الانسان خادماً للقدسيات في ما هو لله وللنفوس

سابعاً : الزيجة

وسر الزيجة ايضاً مصدره السيد المسيح. فهو الذي رفع زواج المسيحيين إلى درجة مقدسة، جاعلاً اياه رمزاً لاتحاده بكنيسته؛ وهو الذي خوّله صفتَي الوحدة والثبات او بالحري ردّهما اليه بعد ان كانت الشريعة الموسوية قد لطّفت مطالبهما بسماحٍ من الله. فمنع الطلاق منعاً باتاً، ومنع تعدّد الزوجات ايضاً بقوله : ((ذكراً و انثى خلقهما الله وما جمعه الله لا يفرقه انسان)). لذلك يقول القديس بولس عن الزواج إنه لسرٌّ عظيم لأنه يمثل اتحاد المسيح بالكنيسة وهو عظيم ايضاً بواجباته التي تعذّر على الذين قبل المسيح أن يقوموا بها على ما ينبغي، وظلَّ لفظها عسيراً حتى على المسيحيين انفسهم، لذلك جعله الله سرًّا يمنح النعمة وسلسلةً من المساعدات الالهية يستطيع بها المزوجون أن يطأوا الموانع التي تحول دون ما يفرضه الزواج عليهم من الواجبات

فممّا تقدم بيانه نرى ان الانجيل المقدس متفق مع التاريخ والتقليد على إِثبات رسم السيد المسيح للأسرار السبعة. وإِذا كان ثمَّ تغيير في كيفية توزيع الاسرار فما هي الاَّ اختلافات ثانوية يرجع تحديدها إلى سلطة الكنيسة وقد اعطت الحق في وضع نظامها

فليس في ايماننا ما يناقض التاريخ فهو متين كالصخرة . فعلينا ان نشكر لله شكراً جزيلاً كونه قد أَعطانا حجج الرجاء الذي فينا

الوسم في الاسرار

ان بين مفاعيل الاسرار مفعولاً خاصًّا بالمعمودية والميرون والكهنوت يُسمَّى وسماً . وهو يمنع من تجديد هذه الاسرار الثلاثة. والوسم هو علامة روحية يطبعها السيد المسيح في النفس . فالسيد المسيح يضع في نفس المسيحي طابعاً خاصًّا ويضع ختمه عليه علامةً على تملُّكِه . ولا عجب في ذلك فان العادة أَن نضع علامة على الأشياء الخاصة بنا . والملوك يضعون رسمهم على النقود التي يسكُّونها، وكلّ دولة تلبس جنودها لبساً خاصًّا يميّزهم عن غيرهم . فالوسم في المعمودية يطبع في المسيحي طابعاً يميّزه عن غير المسيحي؛ فيجعله اهلاً لقبول سائر الاسرار المقدسة، والوسم في الميرون يضع عليه طابع الجنديّة ليحارب أَعداء الخلاص ويعطيه القوة للكفاح عن ايمانه حتى الاستشهاد؛ والكهنوت يسِم المسيحي بعلامة تعطيه السلطة على توزيع الاسرار المقدسة

والفرق بين النعمة الصادرة من السير والوسم هو ان النعمة تقدّس النفس، ويُمكن أن تُخسَر بالخطيئة . أَمَّا الوسم فهو علامة غير قابلة المحو. فبالخطيئة يخسر المسيحي النعمة، لكنه لا يفقد الوسم بل يبقى مسيحيًّا. وتبقى هذه العلامة ولو انكر إِيانه ، فتكون له علامة الخزي. فالمعمَّد والمثبَّت والكاهن يحفظون إلى الأبد العلامة الدالَّة على تملّك الميح عليهم . فمهما أَنكر المسيحي ايمانه فهو لا يزال مسيحيًّا ولا يزال من خراف المسيح، ولو أصبح خروفاً شارداً. ومهما أنكر المسيحي المثبّت ايمانه فهو لا يزال جنديًّا ولو كان جنديًّا جباناً هارباً؛ ومهما أهان الكاهن ثوبه فلا يزال وسم الكهنوت فيه لخزيه وعاره. الوسم

يعطي سلطة على قبول الاسرار او منحها، واما النعمة فتقدِّس النفس وتجعلها مرضيّة الله وتجعل لها حقًّا على الملكوت السماوي. الوسم لا يضمن الخلاص اما النعمة فتضمنه ما زالت في النفس . النعمة قد نحصل عليها بدون السر بواسطة المحبة التامة أو الندامة الكاملة، اما الوسم فلا نحصل عليه الاَّ بالسر

ومما يدل على اعتقاد الكنيسة بالوسم أَنها لا تعطي الاسرار المانحة الوسم الاَّ مرة واحدة . فلا تجدد المعمودية ولا الميرون ولا الكهنوت. فاذا ثبت لها ان هذه الأسرار أُعطيت بالشروط اللازمة، ولو كان عن يد الهراطقة، فهي تمنع تجديد هذا السرّ، لعلمها بان الوسم لا يمحى إلى الأبد. فقد كانت تسلّم بعماد الهراطقة، وقد اعترفت بصحَّته، ولا تمنح الكهنوت من جديد مَن رسمهم الهراطقة المنفصلون عن الكنيسة . وانما كانت تحظر عليهم استعمال وظيفتهم اذا مارسوها عن غير استحقاق – وللكنيسة الشرقية تعبير خاص يُدعى الختم، وبه تسمِّي أحياناً المعمودية او الميرون . وقد استعمل القديس بولس هذا اللفظ إِذ يقول أن الله قد ختمنا بختمه وهذا هو نصُّه : ((الذي يثبتنا معكم في المسيح، وقد مسحنا، هو الله الذي ختمنا ايضاً وجعل عربون روحه في قلوبنا)) (2 كورنثس 1 : 22) ويقول ايضاً في رسالته إلى أهل افسس (4: 30) ((لا تحزنوا الروح القدس الذي ختمتم به ليوم الفداء)). وقد استعمل آباؤنا الشرقيون كلمة ختم بمعنى المعمودية فقالوا مراراً: يجب أن تحفظوا الختم بلا دنس، فالذين يحافظون عليه يخلصون، والذين يدنّسونه يهلكون. والكنيسة اللاتينية تسمِّي هذا الختمSignaculum وهو بالمعنى نفسه

والقديس اغوسطينوس، في جداله مع الهراطقة المدعوين دوناتيين، يقول : ((لا يجوز أن نجدد منح المعمودية والميرون والكهنوت، لأن لهذه الأسرار علامات او وسوماً لا تمحى. وهذا هو تعليم الكنيسة، يجدده المجمع التريدنتيني بقوله : ((من انكر ان الاسرار الثلاثة، المعمودية والميرون والكهنوت، تطبع في النفس وسماً اي علامة روحية لا تمحى تمنع من تجديدها فليكن محروماً))

فالمسيحي الذي نال سر العماد هو مسيحي إلى الأبد، والذي نال سر التثبيت هو جندي المسيح إلى الأبد، والمشترك في كهنوت المسيح هو كاهن إلى الأبد. فمن الواجب اذن على المسيحي أن يذكر مواعيد المعمودية، ومن الواجب على المسيحي المثبَّت أن يذكِّي فيه مواهب الروح القدس ويتبع الهاماته ، ومن الواجب على الكاهن أن يتخذ الكاهن الاعظم مثالاً له في الكمال

ثبّتنا الله جميعاً في الدعوة التي دعانا اليها. ومنح جميع المسبحيين ان يكونوا كذلك بالفعل لا بالاسم فقط، وكل من نال سر التثبيت ان يظلَّ ذلك الجندي البطل المدافع بحماسةٍ عن موهبة الله التي فيه؛ اما الكهنة فنسأل الله أن يزيدهم اعتباراً للوسم الكهنوتي الذي يزّينهم، لتظلَّ نعمة الله فهم مشرقةً بأبهى سنائها، لفائدة نفوسهم وشرف الثوب الذي يلبسونه وبنيان كنيسة السيد المسيح . آمين

المعمودية

بعد أن بحثنا في الاسرار بوجه العموم وجب علينا أن ننظر إلى كل سر بمفرده . ولنبتدئ بفاتحة الاسرار و بابها، الذي يتيح لمن يقبله أَن ينال الاسرار الباقية، أَلا وهو سرُّ المعمودية

ان ذكر المعمودية وحده يكفي لكي نفهم أهميتها . فهي التي تمحو الخطيئة الأصلية، وهي التي تُرجع فينا برارة آدم قبل خطيئته، وهي التي تغسلنا بدم المسيح وتخصّص لنا ثمرة آلامه، وهي التي تصالحنا مع الله وتجعلنا أحباءَه وأبناءَه وهياكل الروح القدس . بها يحل الثالوث الاقدس في نفوسنا، وبها ننال الحق على الإرث السماوي حيث نراه وجهاً لوجه . لذلك يهمنا أن نبحث في هذا السر، فنفهم اولاً حقيقة رسمه – ثانياً ضرورته – ثالثاً مفاعيله . وهكذا يُتاح لنا أن نقدر النعمة العظيمة التي نلناها ونحافظ عليها ما امكننا، حتى إِذا خسرناها نسترجعها بكل الوسائل الممكنة

أولاً : رسم سر المعمودية

اذا طالعنا تاريخ الديانات بين الشعوب رأَينا ان كل الامم أَقرّت بوجود وصمة قديمة التطخت بها الانسانية وشعرت بضرورة إِزالتها .ولذلك استعملت طقوساً مختلفة لتتقي منها. ولم تكن هذه الطقوس الاَّ رمزاً للمعمودية. على ان أكبر رمز للمعمودية المسيحية هو

معمودية يوحنا . فذاك المدعو سابق المسيح كان يقول عن نفسه: ((أنا صوت صارخ في البرية أَعدُّوا طريق الرب و اجعلوا سبله مستقيمة)). فكانت وظيفته التبشير بالتوبة وتعميد الجماهير، ولذلك سُمِّي المعمدان. وكان يقر بأن عماده ليس الاَّ توطئة لعماد السيد المسيح: ((اني اعمدكم بالماء للتوبة، واما الذي يأتي بعدي فهو اقوى مني وانا لا استحق ان احمل حذاءه، وهو يعمدكم بالروح القدس والنار)) (متى 3 : 11). فالقديس يوحنا المعمدان اتى ليعلّم الناس أن المعمودية الحقيقية هي معمودية المسيح الذي هو حمل الله رافع خطايا العالم. لذاك لما اراد السيد المسيح ان يعتمد من يوحنا مانعه القديس يوحنا وقال له: ((أنا المحتاج أن أعتمد منك وانت تأتي إليَّ ؟)) فأسكته السيد المسيح قائلاً : ((دع الآن فهكذا ينبغي ان نكمِّل كل برّ)) (متى 3 : 15) فأطاع يوحنا وعمَّد ربه و الهمه. فكان عماد السيد المسيح فاتحة عصر جديد

اننا نرى في عماد السيد المسيح صورة كاملة للعماد الذي رسمه. به تفهم المعمودية ونرى مادَّة السر، وصورته، ومفاعيله . فمادَّة السر هي المياه التي لامست جسد يسوع الطاهر . وبصبِّها على جسده تقدَّست لا مياه الأردن فقط، التي يتبرّك بها الجميع، بل مياه العالم بأَسره، اذ اصبحت وسيلةً وأداةً لتوليد النعمة في النفوس. وصورة السر هو ظهور الثالوث الأقدس بأُعجوبة باهرة . فالابن ينال العماد، والروح القدس يحل عليه بشبه حمامة، والآب يسمع صوته من أَعلى السماوات : ((هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت)). وقد ظهر مفعول السر اذ انفتحت السماء كما تنفتح لكل من يُعمَّد فيصير ابناً لله مستحقاً لملكوت السماوات

فقد رسم السيد المسيح في عماده سر المعمودية، الذي سوف ينال فاعليته من آلام واضعه المقدسة . وليس كلام المخلص لنقودمس الاَّ لإظهار ضرورة سر المعمودية. وليس أمره للرسل بان يذهبوا ويعمدوا كل الأمم باسم الآب والابن والروح القدس الاَّ اعلاناً لشريعة العماد التي اصبحت منذ ذاك الحين ضرورةً مفروضة على كل من شاء أن يخلص، بحسب قول المعلم نفسه : ((من آمن واعتمد يخلص، ومن لم يؤمن يدان)). لذلك نسمع القديس بطرس بعد اول خطاب القاه يوم العنصرة يطلب قبل كل شيء من المهتدين، وكان عددهم ثلاثة آلاف، ان ((توبوا وليعتمد كل واحد منكم باسم يسوع المسيح)) ومنذئذٍ بدأَ الرسل يجولون في العالم مبشرين ومعمدين

فبعد أن رأَينا كيف رُسم سر المعمودية يسهل علينا أن نفهم ماهية المعمودية . هي، بحسب تحديد المجمع التريدنتيني، الولادة الروحية بواسطة الماء والكلام . فالماء والكلام هما العنصران الضروريان للعماد. وتطهير النفس هو مفعول المعمودية. فقد اختار الله الماء للعماد لكي يسهِّل العماد على كل انسان في اي قطر كان . فالماء هو الماء الطبيعي، ماء البحر وماء الانهر والينابيع والآبار، وماء الثلج الذائب . وفي كل مكان مأهول قد اوجد الله مثل هذا الماء . قال وزير ملكة الحبشة لفيلبُّس الرسول : ((هوذا ماءٌ فما المانع في ان اعتمد؟)) هذا الماء الموجود في كل مكان، الذي يبثّ الحياة في الأرض، قد اراد الله أن يكون وسيلةً و أداةً ليبثَّ الحياة الروحية. فالماء يهبط صباحاً من السماء بهيئة ندى، ويهبط مطراً فيُروي الأرض، ويهبط مساءً مع الرطوبة بشكل قطراتٍ صغيرة. هو الماء الذي ينظف وسخ الجسم، ويُروي العطشان، وهو الذي يُنعش النبات والحيوان والانسان . وعلى قدر ما

تكثر المياه في بلدة تزداد هذه البلدة جمالاً وخصباً ورخاء. ولنا مثال هنا في نهر النيل المحوِّل ارض مصر الى اغنى بلاد العالم واخصبها

فالماء الذي يغسل الجسد يغسل النفس ايضاً . وذلك عندما يلفظ الكاهن، وهو يغطِّس المعمَّد في الماء، هذه العبارة ((يُعمَّد عبدالله فلان باسم الآب والابن والروح القدس آمين)). ومن الضروري أن يتفق التلفظ باسم الثالوث الأقدس مع سكب الماء او التغطيس فيه، فيتم السر وتطهَّر النفس من وصمة الخطيئة ويحلّ فيها الثالوث الأقدس وتصبح ملكاً للروح القدس وهيكلاً له

على أن غسل الجسم بالماء يجوز أن يكون بالتغطيس او بالسكب او بالرش . فالتغطيس كان كثير الاستعمال في الاجيال الأولى، على ما نرى من اجران المعمودية في الديناميس وفي الكنائس القديمة . وفي الأجيال المتوسطة استعملوا السكب او السكب مع التغطيس الجزئي . ومراراً استعملوا الرش، ولا سيما في عماد الجماهير . ولكي يكون العماد صحيحاً يجب أن يسيل الماء على الجسم وان يتَّفق الغسل بالماء مع التلفظ باسم الآب والابن والروح القدس . والذي لا يحافظ على هذه الشروط الضرورية لصحة العماد يكون عماده فاسداً

ثانياً : ضرورة العماد

لم يبقَ لنا مجال للشك في ضرورة العماد بعد ما ورد في الانجيل من حديث السيد المسيح مع نقودمس، الذي كان رئيساً لليهود، وقد أتى ليلاً ليكلّمه . فقال له : ((يا معلم، نحن نعلم انك اتيت من الله معلِّماً لأنه لا يقدر أحد أن يعمل هذه الآيات التي تعملها ما لم يكن

الله معه . فأجاب يسوع وقال له : الحق الحق اقول لك ان لم يولد أحد ثانيةً فلا يقدر أن يعاين ملكوت الله)). فعجب نقودمس من هذا الكلام ولم يفهم مغزاه . فأَراد مزيد ايضاح فقال : ((و كيف يمكن أن يولد انسان وهو شيخ ألعله يقدر ان يدخل جوف امه ثانيةً ويولد))؟ ففسر السيد المسيح كلامه، واظهر وجوب ولادة ثانية روحية، وهي التي تتمّ بالمعمودية، وقال : ((الحق الحق اقول لك، إِن لم يولد احد من الماء والروح فلا يقدر أن يدخل ملكوت السماوات . أن المولود من جسد انما هو جسد، والمولود من الروح انما هو روح. لا تعجب من قولي لك إِنه ينبغي أن تولدوا ثانية. فان الروح يهب حيث يشاء)). فقد وضع السيد المسيح بهذا الكلام شريعة جديدة وهي ان الولادة الروحية بالعماد ضرورية لكل من اراد ان يخلص نفسه . وقد اوضح لأي سبب هي ضرورية فقال : ((ان المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح روح هو)). أي أن المولود من الجسد خاطئ، ولا يقدر أن يطهَّر ويُصبح روحاً الاَّ بالولادة من الروح القدس بواسطة المعمودية. وكما أن الروح يستطيع أن يصل إلى السماء ويعاين الله الذي هو روح، كذلك يبقى الانسان جسداً اي خاطئاً إلى أن يعتمد، ولا يقدر أن يدخل ملكوت الله إن لم يصبح روحاً . فهذه هي الشريعة التي وضعها السيد المسيح، ولا يصبح الانسان من جسم الكنيسة إن لم يعمَّد

فهل يهلك إذن كل من لم يعتمد بالماء ؟ ان العماد قد يكون بغير الماء ويقوم مقامه عماد الشوق او الحب، وعماد الدم. فالمحبة الكاملة المقرونة بالشوق إلى المعمودية، ولو ضمناً، تقوم مقام المعمودية بالماء. أي أن النفس التي تحب الله محبة كاملة مجرَّدة عن كل غاية وترغب في إِتمام كل ما يرضيه، تكون طاهرة مرضية لله ، بدليل قول السيد المسيح : ((من

يحبّني يحبّه ابي وانا احبُّه و اظهر له ذاتي)) (يوحنا 14: 21). ونرى مثالاً على ذلك في اللص المصلوب عن يمين المسيح. فان عاطفة حبٍّ كامل مقرونة بالندامة على خطاياه خلصته، اذ قال: ((اذكرني يا رب اذا اتيت في ملكوتك)). فآمن بالمسيح وهو مصلوب، وآمن بملك المسيح واظهر له عاطفة حب وتواضع، وقال له السيد المسيح وهو مصلوب: ((اليوم تكون معي في الفردوس))

ويقوم مقام عماد الماء عماد الدم . فالذي يُهَرِيق دمه لأجل الايمان بالمسيح، وان لم يُعمَّد بعد، يستعيض بالاستشهاد من العماد. لأنه ((ليس حبٌّ اعظم من هذا أن يبذل الانسان نفسه عن أحبائه)). وقد وعد السيد المسيح بالمكافأة كل من يعترف به حيث قال : ((من يعترف بي قدام الناس اعترف به قدام ابي الذي في السماوات)) . بل ان معمودية الدم أعظم من معمودية الماء و عماد المحبة، لأنها تُظهر محبة اعظم، واتحاداً اعظم بآلام السيد المسيح. فالذين لم يعتمدوا بالماء يقدرون أَن يخلصوا بالمحبة الكاملة او بالاستشهاد . وكل انسان مستقيم النية قادر أَن يخلص نفسه بنعمة الله المعطاة للجميع . أَمَّا الأولاد الذين يموتون بلا عماد فلا يقدرون أن يرثوا ملكوت السماوات. ولكنهم يكونون في سعادة طبيعية لا يتمتعون فيها برؤية الله، لكنهم يعرفونه ويمجدونه ويسبحونه ويتنعمون بنعيم طبيعي ، ومن ذلك يبدو لنا عظم خطيئة الأَهل الذين يتباطؤون في تعميد اولادهم ويعرضونهم لخطر الموت ومن ثمَّ لخسران رؤيته تعالى مدى الأبد

ثالثاً : مفعول المعمودية

بينما الحاضرون حفلة العماد لا يرون بعين الجسد الا غسيلاً خارجياً، اذا بالنفس تتطهر من وصمة الخطيئة، وتتحلى بالنعمة التي هي هبة خاصة من الله تجعلنا ابناءَ الله وورثة ملكوته، وتنطبع في النفس علامة لا تمحى تؤهلنا لأن نقبل باقي الأسرار . فالسماوات تنفتح للمعتمد كما انفتحت في عماد السيد المسيح . واذا كان المعتمد كبير السن وفي حالة الخطيئة الفعلية، فكل الخطايا مع ما تستحق من العقاب، تمحى وتزول، بشرط ان يكون نادماً عليها

وكما ان الولادة الطبيعية تربطنا بعيلة وبوطن، كذلك الولادة الروحية تربطنا بعيلة صغيرة هي الخورنية، وتربطنا بوطن الكنيسة

الولادة الطبيعية تفرض علينا واجبات نحو الوالدين اللّذين ولدانا وربيانا بالتعب والسهر والهموم، فنحفظ لهما معروفاً إلى الأَبد، ومهما قدمنا لهما من الخدم في حياتهما و أيام عجزهما ومهما اظهرنا لهما من الحب فلا نفيهما جزءاً ممَّا يجب علينا من معرفة الجميل . وعلى هذا النحو يجب أن نحفظ معروفاً للكنيسة التي نلنا بواسطتها أعظم النعم فولدتنا للحياة الروحية وسكبت علينا مواهب الروح القدس . الكنيسة التي نلنا فيها العماد تبقى عزيزة لدينا ونحن مدينون لها بان نظهر لها دائماً تعلقاً شديداً ونرغب في أن نصلي فيها ونسمع فيها كلام الله ونتناول القربان الأَقدس اقراراً بهذا المعروف. ونبذل جهدنا بأن

نحافظ على هيبتها بالوقار والسكوت وتزين هياكلها قدر طاقتنا ونقدم لها ما يوحي به الينا قلبنا من مظاهر معرفة الجميل

وكما أن الولادة في وطن مـا تعلّق به المولود فيه، وتحبِّبه بهوائه وارضه وسكانه، وتحمله على المحاماة عنه حتى ليفديه بروحه، هكذا الولادة الروحية تجعلنا من أسرة كبيرة هي الكنيسة، أعضاوها هم المسيحيون، ورأسها المنظور كهنتها و اساقفتنا وبطاركتنا والأَحبار الرومانيون، ورأسها الغير المنظور السيد المسيح . فلأَجل الايمان بهذه الكنيسة سفك عدد كبير من الشهداء دماءَهم. وكان عدد منهم، عندما يسألهم المضطهدون ما اسمكم، يجيبون : اسمنا ولقبنا وجنسنا ((مسيحي)) وليس لي فخر الا بهذا الاسم

نحن تلاميذ المسيح. فليكن فينا اخلاق المسيح، ولنعش ولنمت لأَجل المسيح، لكي نحيا مع المسيح . آمين

التثبت

اننا بسر المعمودية نحيا الحياة الروحية التي استحقها لنا السيد المسيح بآلامه وصلبه. فيحل فينا الثالوث الاقدس، بحسب وعد السيد المسيح القائل : ((ان احبني احد يحبه ابي واليه نأتي وعنده نجعل مقامنا))، لنصبح أبناء الله بالتبنّي، واعضاء جسد السيد المسيح السرّي، وهياكل الروح القدس، وورثة الملكوت السماوي

فكما أن الحياة الجسديّة تحتاج إلى نموّ وتغذية ومساعدة خارجية لتُصان من الفناء، كذلك تحتاج الحياة الروحية إلى قوّة ومساعدة الله لمقاومة التجارب ومصاعب الحياة. وقد طلب منا السيد المسيح الجهاد في الحياة الروحية، بقوله : ((لا تظنُّوا أني أَتيت لأُلقي على الارض سلاماً، لم آتِ لأُلقيَ سلاماً بل سيفاً)) (متى 10 : 34). بيد أنَّ السيد المسيح، بعد أن طلب منا هذا الجهاد، اعطانا القوة والسلاح لنحارب وننتصر وهذا السلاح الذي يقوّينا ويثبتنا في ايماننا ويكمّل عمل المعمودية هو سر التثبيت

وها نحن نبسط الآن اولاً حقيقة تأسيس سر التثبيت – ثانياً مفعول هذا السر في حياتنا المسيحية – ثالثاً الواجبات الناجمة عن قبول هذا السر المقدس

أولاً : حقيقة تأسيس التثبيت

ان سر التثبيت سر حقيقي ، أسسه السيد المسيح، ليعطينا نعمة التقوية الروحية، ويكمّل في نفوسنا مواهب الروح القدس التي ننالهما في المعمودية. وقد وعد به الخلص تلاميذه بقوله : ((أنا اسأل الآب فيعطيكم معزياً آخر ليُقيم معكم إلى الابد ...لا ادعكم يتامى اني آتي اليكم . وامّا المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ... ومتى جاء ذاك الروح فهو يرشدكم إلى جميع الحق)) (يوحنا 14 : 16و 26، 16 : 13) ((وإذا أَسلموكم فلا تهتمُّوا كيف او بماذا تتكلمون، فإنكم ستُعطون في تلك الساعة ما تتكلمون به، لأنكم لستم انتم المتكلمين لكن روح ابيكم هو المتكلم فيكم)) (متى 10 : 19 و 20) ((ومتى حلَّ عليكم الروح القدس تكونون لي شهوداً في اورشليم واليهودية والسامرة والى اقصى الأرض)) (أعمال 1 : 8)

ولما صار وقت اتمام الوعد ومكثوا في العلية الصهيونية لينتظروا مجيء الروح القدس كما امرهم الرب، اهتزت جدران العليّة الصهيونية يوم عيد العنصرة المقدس، ورأى الرسل بأعينهم اتمام ما وُعدوا به . وبدأوا يتكلمون بلغات مختلفة . وكان ذاك اليوم بدء تاريخ جديد في تأسيس الكنيسة. فاهتدى إلى الايمان اربعة آلاف نفس ممن سمعوا خطاب القديس بطرس

على أنَّ هذا الوعد لم يوجَّه إلى الرسل فقط، لان الروح القدس الذي حلَّ عليهم كان بقاؤه ضروريًّا في كنيسة المسيح إلى الابد. (يوحنا 14: 16). فمن الواجب أن يحل على جميع المسيحيين على توالي الاجيال . لذلك نرى الرسل يضعون ايديهم على رؤوس المعمَّدين

فينالون الروح القدس. وطاف الرسولان بطرس ويوحنا في السامرة يثبّتان المسيحيين بوضع الايدي على رؤوسهم

وقد كانت ممارسة هذا السر عامّة شاملة كل من نال سر العماد . وكان استعماله شائعاً بوضع الايدي. وقد ظهر استعمال الزيت المطيَّب المسمّى بالميرون منذ عهد عريق في القِدَم . وهو رمزٌ لتقوية الفضيلة ولوجوب انبعاث عرف الفضائل المسيحية من كل مسيحي قد تعمد بالمسيح فلبس المسيح. وكانوا يعدّون قبول التثبيت وسيلةً ضروريةً لنيل الروح القدس، على ما ذكره الآباء القديسون، ويعتقدون انه بمنح هذا السر يحل الروح القدس في النفس كما حلَّ على الرسل الأطهار في عليّة صهيون يوم عيد العنصرة

ذلك ما يعلمنا اياه الكتاب المقدس والتاريخ الكنسي . ولنا ايضاً برهان عقلي يساعدنا على إدراك ذلك التعليم الراهن . فقد شاءَ الله عز وجل تنظيم الحياة الروحية على نظام الطبيعة . فالمولود حديثاً يحتاج إلى تقوية ونمو. وعقله في حاجة إلى الاستنارة، وارادته في حاجة إلى تثقيف، وقلبه في حاجة إلى التربية على العواطف النبيلة. وعلى هذا المنوال تحتاج النفس إلى نعم الله ومواهبه لتقاوم الاهواء المنحرفة، وتكافح الرذيلة، وتمارس الفضائل المسيحية . فالمعمودية في الحياة الروحية تقوم مقام الولادة الطبيعية، والتثبيت يقوم مقام التقوية والنمو، فيقوي الطبيعة الروحية ويساعدها على بلوغ الكمال الروحي

وفي سر التثبيت هذا يُعزى تقديس النفس وابلاغها درجة الكمال إلى الروح القدس لان الروح القدس يصدر من محبة الآب والابن المتبادَلة، وهو مصدر كل قداسة في الكنيسة وعاملها الاكبر

ثانياً: مفعول التثبيت

ان الروح القدس نفسه ما زال يعمل عملاً مستمرًّا في العهدَين القديم والجديد على توالي الاجيال . فهو في العهد القديم اتم وعد الله لآدم بخلاص البشر وأَلهم الأنبياء في احقاب مختلفة، فجعلهم يرمون كلهم إلى غاية واحدة، ويصور كل واحد منهم لمحةً من ملامح المسيح، وقد كتبوا سيرة السيد المسيح قبل أن يأتي . فعرّفوا تاريخ المسيح قبل مجيئه، ولم ينسوا شيئاً من تفاصيل حياته، فصوَّروه صورةً كاملة : فذكروا اسماء عشيرته وأسرته وعرّفوا اسمه، ومجدوا عظمته وعجائب ميلاده، ووصفوا تواضعه في حياته الخفيَّة، ومحل كرازته، وذكروا أعماله المجيدة، وبغض اعدائه له، وتفاصيل آلامه وظروفها، وعار موته، ومزايا قيامته، وتأسيسه مملكة جديدة، واضطهادات الكنيسة وانتصاراتها. ولَّما تنبَّأ ملاخيا قائلاً : ((هاءَنذا مرسل ملاكي فيهيئ الطريق أمامي وللوقت يأتي إلى هيكله السيد الذي يلتمسونه ...)) كانت هذه النبوءة آخر ما سُطِّر من تأريخه . فكل من طالع هذه النبوءات بنيَّة مجرّدة عن الاغراض رأى صورة المخلص كاملة في العهد القديم

وما أَلهم به الروح القدس الانبياء قبل مجيء المخلص اتمَّه في حياة المسيح المخلص نفسه. فهو قد قدّس المسيح المخلص في احشاء البتول مريم بطريقة عجيبة تُحيّر العقول، فحبلت العذراء البتول من الروح القدس. وهو قدّس حياته الخفيّة والعلنيّة. وقدّس الرسل وحلَّ عليهم واعطاهم النور والقوّة والشجاعة

فالعنصرة عند المسيحيين عيد تقديس الرسل وإِبلاغهم الكمال الروحي . وقد حلّ عليهم بأُعجوبة وعدهم بها السيد المسيح . وكان الرسل بوضع الايدي يستنزلون الروح القدس على التلاميذ، لانهم رسل الله والموكَّلون بتوزيع اسراره. وما وهبه الروح القدس للرسل في العنصرة من النعم العادية يهبه لكل مسيحي بواسطة سر التثبيت فيقدّسه و يُنيره ويقوّيه و يُريه طريق الكمال . وانما نستثني المواهب الخارقة العادة كموهبة الالسنة والتثبيت في حال النعمة حتى الموت وما اليها، لأنها أُعدَّت للرسل دون سواهم، من اجل رسالتهم خاصة وكان حلول الروح القدس على المسيحيين الأوّلين يظهر بالآيات والعجائب. لان العجائب كانت ضرورية في مهد المسيحيّة لتقوية الايمان الضعيف الحديث العهد. وبعد ما نشأت الكنيسة وتقوّت لم يبقَ مثل هذه الحاجة الى العجائب

فأَصبح الايمان كافياً بالذي وعدها بان يبقى معها كل الأيام إلى منتهى الدهر. ولهذا أصبح الآن حلول الروح القدس في سر التثبيت خفيًّا لا ترافقه العجائب الظاهرة. ومع هذا فانه لا يزال يهب مواهبه الغزيرة المساعدة على الجهاد الروحي وعلى ممارسة أسمى الفضائل

فالمسيحي في طقسنا الشرقي، بعد أَن تجدّد بالمعمودية ميلاده الروحي ولبس سربال البرّ والعدل، يضع كاهن الرعية يده على رأسه وهو يقوم مقام الأسقف في الطقس الغربي، ويقول: مبارك انت ايها الرب الضابط الكل، ينبوع الخيرات وشمس العدل، يا من أَضاء للذين في الظلمة نور الخلاص بظهور ابنه الوحيد الهنا، ومنحنا نحن غير المستحقين، التنقية السعيدة في الماء المقدس والتقديس الالهي في المسحة المحيية . يا من سُرَّ الآن ايضاً بان يجدد ميلاد عبده المستنير جديداً بالماء والروح واعطاه غفران خطاياه الاختيارية وغير الاختيارية. انت ايها السيد ملك الكل الجزيل الرأفة، هب له ايضاً ختم موهبة روحك القدوس الكلي القدرة المسجود له ... احفظه في قداستك، ثبّته في الايمان القويم، نجِّه من الشرير ومن جميع اخلاقه. احرس نفسه بخوفك الخلاصي في الطهارة والبرّ، حتى إِذا ارضاك في كل عمل وقول يصير ابناً وارثاً للكوتك السماوي، لأنك انت يا الهنا إِله الرحمة والخلاص، واليك نرفع المجد ايها الآب والابن والروح القدس، الآن وكل اوان والى دهر الداهرين. آمين

وبعد هذه الصلاة، التي تظهر مفاعيل هذا السر، يمسح الكاهن بالميرون المقدس على شكل صليب جبهة المعمّد وكل حواسه، رمزاً الى وجوب تقديس النفس . فيقدس نظره لئلا ينظر إلى ما لا يليق النظر اليه من المحرَّمات، ويقدّس سمعه لئلا ينصت إلى الآراء المضلة والاقوال الفاسدة، ويقدس فمه كي لا يستسلم إلى الشراهة ولا ينطق بما لا يليق بالمسيحيين . وقس على ذلك باقي حواس المعتمد، لتكون آلة للفضيلة، لا للرذيلة

بختم الحواس بزيت الميرون يتم في المثبَّت قول النبي اشعيا الذي تنبَّأ به عن السيد المسيح رأس الكـنيسة : ((يخرج قضيب من يسَّى ويستقر عليه روح الرب. يحل عليه روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوّة، روح العلم وتقوى الرب، ويتنعم بمخافة الرب)) (اشعيا 11: 2). فهذه المواهب التي ننالها بالمعمودية تتقوَّى فينا بسر التثبيت لنقاوم مصاعب هذه الحياة وتجاربها، ونعيش عيشة الكمال المسيحيّ

فروح الحكمة يزيدنا معرفةً لأسرار الله في عِلَلِها السامية ويجعلنا نتذوّقها ونحبّها حُبًّا بليغاً فنتخذ الوسائل الفعالة لنصل إلى غايتنا الروحية والى سعادتنا الأبدية، ونحتقر كل ما يسعدنا عن غايتنا القصوى التي هي تمجيد الله

وروح الفهم يعطينا نوراً خاصًّا لنُمعِنَ في التمييز بين الحقائق الالهية والأكاذيب العالمية ويحملنا على تفضيل النفس على الجسد والحياة الآخرة على الحياة الزائلة

وروح العلم يزيدنا ايماناً وفهماً للخلائق بنسبتها إلى الله ويحفظنا من التعاليم الفاسدة ويرشدنا إلى اخضاع عقلنا لمراسيم الدين والوحي الالهي، ويحملنا على ان نزِن امور هذا العالم الزائل بميزان الابدية

وروح المشورة يزيدنا فطنة ويمنعنا من التهوُّر في احكامنا، وعلى الخصوص في الأحوال الصعبة، ويُبعدنا عن التردُّد والارتياب، ويعلِّمنا أن نختار الافضل في ما يؤول إلى خيرنا الأبدي . فان مشورة الروح القدس تفوق كل تعلّم الحكمة العالميَّة

ولكن ما منفعة النصائح والارشادات إن لم تكن النفس مستعدّة لاتباعها . فيهمنا، والحالة هذه، أن يسند الروح القدس ضعفنا ويهب لنا روح القوَّة، لنقاوم الصعوبات ونتغلَّب على التجارب، مهما كانت شديدة، ونذلّل كل العقبات التي تتصدّى لنا دون الوصول إلى الحياة الابدية ؛ ومع القوَّة يمنحنا الروح القدس روح العدل الذي يعلمنا حبَّ الواجب واحترام حقوق الله وحقوق القريب واعطاء ما لقيصر لقيصر وما الله الله

ويزيد فينا الروح القدس روح خوف الله، فنخشى حكم الله العادل الذي لا يحابي الوجوه بل يجازي كل انسان بحسب أعماله. ونخاف خصوصاً إغاظة أبٍ حنون ارسل ابنه الوحيد فمات لأجلنا ووعدنا بسماء نتمتع فيها برؤيته مدى الأبدية، فيصعب علينا إذن الابتعاد عن هذا الأب الحنون ونخاف من مخالفة اوامره ورغائبه

فهذه المواهب السبع تجعلنا نقوى على اهوائنا المنحرفة، فتُنير ايماننا وتقوّي رجاءَنا وتُضرم محبتنا لله

ان الثالوث الاقدس في سر المعمودية يحل فينا. لكن الغاية من سر التثبيت هي تقويتنا وإبلاغنا درجة الكمال الروحي . فالروح القدس مبدأ الحياة الروحية في المعمودية يزيدها فينا بسر التثبيت ويقوّيها. وبما أن للحياة الروحية اعداء، فمن الضروري أن نحصل على السلاح الكافي لمحاربة أعداء خلاصنا. ففي العماد نتنقى، وفي التثبيت نتقوّى. في المعمودية نُنقَذ من الموت، وفي التثبيت نُثَّبت في الحياة . في المعمودية ننال البرارة، وفي التثبيت الكمال . في

المعمودية نُسجَّل في حضن الكنيسة وفي التثبيت نُسجَّل في جندية المسيح لمقاومة اعداء الخلاص الابدي. نستطيع أن نلخّص واجبات المسيحي المثبّت كما يلي:

ثالثاً : واجبات من يقبل هذا السر

يجب على من نال سر التثبيت أَن تظهر فيه رموز الزيت المطيَّب، وهي : القوَّة ورائحة الفضائل المسيحية المنبعثة من عرف المسيح، نعم إِن آثار الزيت لا تلبث أن تمَّحي؛ لكننا نُختم بختم لا يُمحى، فالمثبت يختم الى الابد بختم المسيح، فلا تمحوه الخيانة ولا المروق عن الـدين . وجنديّته لا تنتهي الاَّ بالموت، عندما يمر المسيحي تحت قوس نصر الموت إلى الحياة الابدية

فهذا الصليب الذي ختمنا برسم علامته يجب ان نحمله في المخاطر وفي أهوال الحروب، فالختم يساعدنا على حمل الصليب وعلى الانتصار. وما اكثر ابطال هذه الجندية الذين حاربوا على توالي الايام وعلمونا كيف ننتصر. فقد بدأَ اثنا عشر بطلاً في خوض هذه المعركة، وحاربوا العالم ليهدوه إلى الإيمان بالمسيح . وبعد أن كانوا ضعفاء، اصبحوا بقوة الروح القدس مبشري المسكونة. فلا الاهانات، ولا التهديدات، ولا الحبوس، ولا السلاسل، اخافتهم وأَرجعتهم عن التبشير بإِله مصلوب. بل قد جابوا المسكونة بين أُلوف من المخاطر، وسقوا بدمائهم ساحات القتال التي كافحوا فيها. وقد هدوا الى الايمان عدداً كبيراً ممن بشروهم حتى حق للقديس بولس ان يقول لأهل رومة: ((اني اشكر الهي ... على ان ايمانكم يبشر به في العالم كله)) (رومة 1 : 8)

وفي القرون الثلاثة الأولى اهرق دم اكثر من عشرة ملايين من الشهداء ولم يلوِ عزمهم عذاب أو موت. فصلبهم أعداؤهم، او شنقوهم، او مزقوا أعضاءَهم او احرقوهم، ولم يسمع لهم الا صوت واحد ((اني مسيحي))

وهذا الصوت ردده الصغير والكبير، والحر والعبد، والغني والفقير، والعالم والجاهل، وكان في صفوفهم النساء والأطفال. واصبحت البتول الصغيرة لا تقل جرأَةً عن السيدات الشريفات

وفي عصرنا هذا كما في الاجيال المسيحية الأولى، نرى الشهداء في كل حدْب وصوْب، يناضلون عن الايمان ويموتون لأجل المسيح. و كثيرون ممن لم يسفكوا دمهم هم شهداء الواجب في سبيل المسيح. فالبتول التي حافظت على بتوليتها حبًّا لعروسها الالهي، والناسك الذي قضى حياته في التقشّف ضمن الديورة وفي القفار ومارس العفة والفقر الاختياري والطاعة، والمسيحي المحافظ على واجبات الزواج المقدسة، هؤلاء كلُّهم شهداء الواجب يحاربون لأجل الايمان والفضائل بقوَّة الروح القدس

((فاذ يُحدق بنا مثلُ هذا السحاب من الشهود، كما قال القديس بولس في رسالته إلى العبرانيين (12: 1 –2)، فلنلقِ عنا كل ثقل وما يشتمل علينا من الخطيئة ولنسابق بالصبر في الجهاد الذي امامنا. ولنجعل نظرنا الى مبدئ الايمان ومتمّمه الذي بدل السرور الموضوع امامه تحمَّل الصليب مستخفًّا بالخزي وجلس عن يمين عرش الله)). فعصر الاضطهاد لم يمرّ، اذ لا نزال نراه في عصرنا ولعلَّه ايضاً ينتظرنا

وما عدا الاضطهادات يجب أن نحارب اعداء خلاصنا: فنحارب العالم الذي يحارب ايماننا ومبادئ الفضيلة، ويُقصي اولادنا عن المراتب الموعود بها اعداء الدين والفضيلة. ونحارب الشيطان الذي يحسدنا لكوننا مُعدّين أن نأخذ المكان الذي خسره في السماء. ونقاوم اعداء الخلاص المختفين في كثير من الكتب، وفي كثير من شرائط السينما وفي عدد لا يحصى من الجرائد و المجلات التي تنشر الضلال والفساد . فيجب ان نبقى جنود المسيح المحاربين. و إِن لم نقدر ان نحارب بوعظنا او بكتاباتنا فلا اقل من أن يكون ذلك بحسن سلوكنا و بأمثالنا الصالحة. ولا ننسَ ما قال السيد المسيح ((لا بُدَّ أن تأتي الشكوك، ولكن الويل لمن تأتي الشكوك عن يده)). فالعالم يغبط اصحاب الاموال ولو اقتنوها بطُرقٍ محرَّمة؛ العالم يطوّب التابعين لشهواتهم ولو كانت منحرفة؛ العالم يغبط اصحاب الوظائف ولو سعوا اليها بالرشوة والجرائم وقتل النفوس، العالم يهزأ بالذين يقومون بواجباتهم، لان سلوكهم القديم توبيخ للمنافقين

واذا لم نجد مقاومةً من الأعداء، فمقاومة اهوائنا ليست باقل اجراً وفضيلة، فالكبرياء والطمع والبغض والانتقام هي أعداء الايمان كأعظم المضطهدين

اجل يجب أن لا ننسى ابداً انَّا جنود المسيح، وأن نذكر دوماً قول قائدنا ((ان ملكوت السماوات يغصب، والغاصبون يختطفونه))، وان ((من اراد ان يخلص نفسه يهلكها، ومن اهلك نفسه في هذا الدهر يجدها في الحياة الابدية))

فلا نخشَ اضطهاد العالم بل لنحارب أهواء الجسد وتجارب الشيطان وننظر الى الذي لا يخلف في وعده. فهو يعرف ان يكافئ من يسقي المعوز كأس ماءٍ بارد باسمه أكثر مما يكافئ العالم من يهرق دمه لأَجله، وهو وحده يستحق محبتنا، وهو الذي يهب السعادة الأبدية. آمين

الاعتراف

لا يقدر البشر أن يخترعوا سرًّا كسر الاعتراف . فلا يخطر ببال انسان ان يغفر الخطايا، ولا بوسع الانسان ان يلزم التائب ان يقر بخطاياه الداخلية، ولا في قدرته أن يقيم كهنة يخوِّلهم سلطان مغفرة الخطايا. وفي الواقع لم يذكر التاريخ مؤسساً بشريًّا لهذا السر. فهذا السر الذي تستعمله الكنيسة منذ عشرين قرناً قد اسّسه السيد المسيح.

أولاً : ليس الاعتراف تأسيساً بشرياً

لم يجُل بخاطر بشر ان ينطق بهذه العبارة ((مغفورة لك خطاياك . كل ما حللتموه على الارض يكون محلولاً في السماوات)) . فغفران الخطايا هو للّه وحده. ومن يجرؤ ويقوم مقام اللّه ؟ والخطيئة هي مخالفة شريعة اللّه، فاللّه وحده يُهان بالخطيئة، وله وحده ان يكافئ على حفظ الشريعة ويعاقب على مخالفتها. وقد فهم القديسون ان غفران الخطايا خاص باللّه، لذلك لمَّا سمعوا السيد المسيح يقول للمخلّع : ((مغفورة لك خطاياك))، أَخذوا يتذمَّرون ويقولون : ((من يغفر الخطايا الاَّ اللّه وحده)). ولم يعترض السيد المسيح على هذا الاعتقاد، بل لامهم على عدم ايمانهم بالوصيّة، واثبت لهم ذلك بالفعل: ((لكي تعلموا أن لابن البشر سلطاناً أن يغفر الخطايا)) أُبرهن سلطاني هذا بالفعل فأقيم المخلّع اثباتاً لهذا السلطان. والتفت إلى المخلّع وقال له : ((قم احمل سريرك واذهب إلى بيتك)).

فالسيد المسح وحده الآتي ليخلص العالم كان يهتم بغفران الخطايا، وبشفاء نفس المريض قبل شفاء جسده. والانسان اذا اراد غفران خطاياه وخطايا غيره يحاول الاستغفار بالصلاة و التوبة، ليس الاَّ

إن سر الاعتراف لم يحاول بشرٌ رسمه. إذ ليس للإنسان سلطة تلزم التائب بالإقرار بخطاياه. ومن هو ذاك الجبّار، مهما امتدّت سلطته، الذي يدّعي الولاية على النفوس ؟ فملوك الارض لا يحكمون الاَّ على الأجساد والاعمال الظاهرة، ولا سلطة لهم على القلوب والنيَّات والاعمال الخفيَّة. واذا ادَّعوا ذلك فليس لهم قدرة على مراقبته وتنفيذه . واذا دان لهم شعب فليس لهم أن يسيطروا على كل القلوب. واذا حكموا على العالم مدة فلا قدرة لهم ان يحكموه على مدى الأزمان. لان حياة الانسان كزهرة العشب، تفوح رائحتها اليوم وغداً تُطرح في التنور. فليس بوسع الانسان ان يحكم على كل الأزمنة والامكنة. فلا يجول في خاطر مملوك ان يقول لملكه: تعالَ اركع امام من هو اقلُّ منك قدراً . ولا يفكّر فقير في أن يقول للغني: اركع امامي وأَقرَّ بخطاياك . ولا احد يقدر أن يلزم العالم بالركوع أمام الجاهل، ولا ان يلزم المتكبر بان يقرّ بخطاياه، ولا بخطاياه كلها، وبما هو معروف وبما هو غير معروف، وبالخطايا التي يندى لذكرها الجبين، بخطايا السرقة الطالبة التعويض، وبالخطايا المطلوب في التوبة عنها قطع اللذات وقهر الجسد والارادة . أَجل ليس بوسع القدرة البشرية أن تلزم النائب بالإقرار بجميع خطاياه

وليس من قدرة البشر ان تجعل الكاهن خادم سر الاعتراف. فأيّ انسان يقدر أن يقول لغيره: كل ما حللتم على الأرض يكون محلولاً في السماوات؟ و من اين تُعطى لإنسانٍ سلطة كهذه: ان يحلّ في السماوات ما قد حلّه شخص آخر على الأرض؟ واي كاهن بتجاسر ويقدم على هذا الأمر؟ واذا فرضنا المستحيل وادّعى كاهن لنفسه هذه السلطة، فهل يستولي الوهم والغش على كهنة العالم كلهم، في كل زمان ومكان؟ واي قدرة بشرية تولي الكاهن هذا القلب الواسع لان يقف حياته على استماع مخازي العالم الخفيَّة؟ من يعطي الكاهن الصدر الرحب لان يسمع ذوي القلوب الغليظة، مع ما فيهم من الغلاظة التي تنفِّر القلوب، ويسمع مراراً ترداد حكاياتهم التافهة؟ ومن يعطي الكاهن صبر أيوب ليسمع حكايات الاولاد الصغار التي لا معنى لها، أو يسمع الاعترافات الطويلة التي تقشعر لها الأبدان ؟ من يعطي الكهنة القوة لسماع اعترافات المرضى والمبتلين بالأمراض المعدية، والفقراء في البيوت القذرة التي تنبعث منها الروائح الكريهة

وإذا أُجبر كاهن بعد سماع الاعتراف على ان يبوح بالسرّ، من يعطيه القوة على التضحية بنفسه وتفضيل الموت على كشف سر الاعتراف؟ وهذا ما جرى كثيرًا حتى في الايام الحاضرة. فان الجرائد الجديرة بالتصديق قد ذكرت أن اثنين وعشرين كاهنًا في المكسيك آثروا أن تُقطع ألسنتهم ويذوقوا الموت الزؤام على أن يبوحوا بسر الاعتراف. و كيف نفسِّر هذا السرّ العظيم بأنه لم يُسمع قطّ عن كاهن، مهما كان زنديقاً وسافل الاخلاق، أَنه باح بسرّ الاعتراف؟ فالقدرة البشرية عاجزة عن تدبير كهنة لسرّ الاعتراف

والتاريخ يدعَم صِدق قولنا بأَنه لم يذكر اسم انسان أَقدم على هذا العمل. فإِنّ رَسْم سرٍّ كسرّ الاعتراف هو حادث جلَل . والتأريخ قد حفظ اسماء الذين جرت على يدهم أعمال كثيرة أقلّ شهرة من رسم سر الاعتراف. فذكر لنا اسماء مؤسسي الأعياد ومشيّدي الكنائس، والمبتدعين لأقلّ بدعة في كنيسة الله. على انه لم يذكر البتة اسم مخترع بشريّ لسرّ الاعتراف، في أيّ عصرٍ كان. ولو كان ثمَّ ذلك لما رضخ العالم لهذا الاعتراف بسهولة و لَوُجد من يعترض على هذه البدعة

بل اننا نرى لسرّ الاعتراف آثاراً في جميع الكنائس وفي جميع الأجيال. وإِذا كان البروتستانت قد بدأُوا بعد ستة عشر قرناً يُهمِلون الاعتراف، فما ذلك الا لكون مؤسسيهم أنكروه. فان لوتِر و كلفين وزفنكل قد أقرّوا بهذا السرّ. ولكن منذ ضاع الكهنوت من كنيستهم وأَصبح رعاتهم غير حاصلين على السلطة الالهية بعد أن قطعوا سلسلة اتحادهم بالكنيسة وبالرعاة الشرعيين، لم يعُد بإمكانهم توزيع هذا السرّ فبدأُوا يهملونه ثم اخذوا يحاربونه

وامَّا كنائس الشرق والغرب فقد بقيت محافظة على هذا السرّ ولا نرى في الشرق بدعة واحدة ترفضه. فهوذا المنفصلون منذ القرن الحادي عشر والتاسع والسادس حتى الخامس لا يزالون محافظين على سر الاعتراف . فهذا السرّ ثابت غير مشكوك فيه حتى في القرون الأولى

ففي الأجيال المتوسطة نرى الشواهد كثيرة في الكنائس الشرقية والغربية على استعمال سرّ الاعتراف. وبوسعنا أن نستشهد بأقوال القديسين غريغوريوس الكبير ولاون في القرنين السادس والخامس، وأن نذكر أقوال القديسين أغوسطينوس وايرنموس و امبروسيوس ويوحنا من الذهب وباسيليوس واثناسيوس و غريغوريوس في القرن الرابع. امَّا في الأجيال الاولى فرغماً عن إبادة الكتب وعن تحفُّظ المسيحيين في الكلام على هذا السرّ في زمن الاضطهاد، ورغماً عن وجود الاعتراف العلني في ذاك العهد، فإننا قادرون ان نستشهد بأقوال القديس كبريانوس والعلامة اوريجانس في القرن الثالث، وأَن نستشهد بأقوال ترتوليانوس والقديس اكليمنضوس في القرن الثاني. وعندنا آثار واضحة للاعتراف في الاجيال الأولى، في بيعة الدياميس في رومة، في المغاور تحت الارض

ثانياً : السيد المسيح وحده رسم هذا السر

لم يُقدِم بشر على رسم سرّ الاعتراف. ولم يعرف التأريخ انساناً اخترع هذا السرّ. بل نرى ممارسة الاعتراف في الكنيسة في كلّ الأجيال صُعُدًا إلى زمن السيد المسيح الذي وعد وحده بهذا السرّ ولم يرسمه أحد سواه

أَجَل، أن السيد المسيح هو وحده حَمَل الله رافع خطايا العالم، الذي سفك دمه لمغفرة الخطايا ، والذي كان يهتمّ بشفاء النفس قبل شفاء الجسد، قد وعد تلاميذه برسم سرّ الاعتراف بقوله لهم : ((كل ما حللتموه على الأرض يكون محلولاً في السماوات وكل ما ربطتموه على الأرض يكون مربوطاً في السماوات))

وبعد أن وعد السيد المسيح بهذا السر اتمَّ وعده ورسمه بعد قيامته، اذ ظهر لتلاميذه والابواب مغلقة وقال لهم: ((كما ارسلني الآب كذلك أنا أُرسلكم)). ثم نفخ فيهم دلالة على اعطائهم الروح القدس وقال لهم: ((خذوا الروح القدس. من غفرتم خطاياهم تغفر لهم ومن امسكتموها عليهم فلتمسك)). فهي سلطة الهيَّة يضعها في رسله. فعليهم الآن أن يحكموا والسماء توافق على حكمهم. بهذا الكلام قد السيد المسيح سر الاعتراف

ولذلك وَجَب على الخاطئ الاقرار بخطاياه. لأنه إن لم يقرّ بخطيئته فكيف يحلُّها الرسول أو يربطها ؟ ولهذا فُرضت الندامة ايضاً، لأنه لا غفران بلا ندامة. وفُرض القصد الصالح بعدم الرجوع إلى الخطيئة. وهو أيضاً من شروط الندامة

هذا هو الاعتراف الذي تمارسه الكنيسة منذ الاجيال الأولى، وهو تأسيس السيد المسيح، تأْسيس إلهي لا بشري. فقد أسس السيد المسيح ووضع بين ايدي رسله وخلفائهم محكمة روحية لغفران الخطايا. فهل يلتزم المسيحيون الخاطئون بان يلتجئوا إلى هذه المحكمة لكي ينالوا الغفران عن الخطايا؟ أَلا يذهبون مباشرة إلى السيد المسيح ويستغنون عن الوسائل التي أقامها؟_ لو لم تكن إرادة السيد المسيح بإجبار المسيحيين الخطأة أن يلتجئوا إلى الكنيسة لَما كان أسّس سرّ الاعتراف ولَما أسّس محكمة روحية ولَما اعطى تلاميذه هذه السلطة. وما الذي حمل السيد المسيح على أن يؤسس في كنيسته محكمة روحية لو كان يكفي الالتجاء اليه مباشرة ؟ هل ليزيد على الخاطئ صعوبة التوبة بقوله: انت حرّ بان تلتجئ إلى المحكمة التي أسستها أَو تلتجئ إليَّ بدون واسطة ؟ أم هل لتكون هذه المحكمة بلا منفعة،

لأن الناس يفضّلون الالتجاء إلى الله ولا يحتاجون إلى زيادة العبء عليهم في التواضع والاقرار، وذلك اسهل عليهم. أم ليستهزئ برسله ويقول لهم: اني اعطيكم سلطاناً ولكن لا يضطرّ الناس إلى الالتجاء اليه. معاذَ الله من هذا التقدير! فان السيد المسيح أراد هذه المحكمة ليلتجئ التائب اليها ويتضع بين يدي رسوله ويظهر ايمانه بكلام الله. ارادها لأنه يريد في فداء البشر ان يستعمل وسائل حسية وروحية معاً ليحمل على التوبة الانسان المركب من نفس روحية وجسد حسِّي. وفي ذلك منتهى الحكمة والرشاد

فالاعتراف اذن ليس من وضع بشري، بل هو من وضع إلهي. ومن الواجب على كل مسيحي خاطئ أن يلجأ اليه، ويشكر الله عز وجل كونه قد جعل له في هذه الدنيا محكمةً ومنبراً للرحمة، قبل أن ينصب منبراً ومحكمةً للعدل رهيبة يدين فيها العالم

الشكر للسيد المسيح الذي نصب في كنيسته خدمة المصالحة، سرّ التصالُح مع الله . قدّرنا جميعاً على الاستفادة منه. انه الرحيم الغفور . آمين

التوبة

رأَينا ان تأسيس سر الاعتراف الهيّ لا بشري. وبرهنَّا أن غاية السيد المسيح في تأسيس هذه المحكمة الروحية أَن يلزم التائبين الالتجاء إلى محكمة التوبة، وإِلاَّ لما كان من داعٍ إلى تأسيسها. وقد رأَينا أن الكنيسة قد استعملت في الواقع سلطة الحلّ منذ الاجيال الاولى : ففرضت الاعتراف العلني والسرّي، وكانت تعاقب عن بعض الخطايا بالحُرم او القطع من شركتها، لاعتقادها أن الكنيسة هي جماعة القديسين، فلا يجوز أن يبقى في جسمها عضو فاسد. وكانت تبدي تحفظاً شديدًا في غفران بعض الخطايا، كالقتل والزنى وعبادة الأوثان، حتى انها بقيت مدة من الزمان تُقصي مقترفيها من المعابد ولا تسمح لهم بالحل من خطيئتهم الاَّ في ساعة الموت. و كانت تعاقب خطايا اخرى بإلزامها الخاطئين ان يلبسوا مسحاً ويقفوا على باب الكنيسة السنين الطوال، ويبذلوا الصدقات، وتفرض عليهم الصلوات، إلى أن يظهروا توبةً صادقة. وحرارة الايمان عند المسيحيين قد سمحت لبعض رؤساء الدين أَن يعاقبوا المجرمين من كل طبقة، حتى ولو كانوا قياصرة

من ذلك ان القديس أمبروسيوس اسقف ميلانو، لَّما رأى الملك تودوسيوس محاولاً دخول الكنيسة في مدينة ميلانو، بعد ان صبغ يديه بدماء بعض اهالي تسَّالونيك الأبرياء، منعه من الدخول إلى الكنيسة. فأذعن العاهل العظيم الذي كان مالكاً آنئذٍ على المسكونة وقال للقديس : إن الله سامحني كما سامح النبي داود حين اخطأ. فأجابه القديس أمبروسيوس : كن

شبيهاً بداود في توبته لتحصل على الغفران الذي حصل عليه. فأَصاخَ الملك للأسقف ولم يدخل الكنيسة الاَّ بعد أن اتمّ الفرض المرسوم واظهر للملأ توبة صادقة

والاعتراف العلني الذي كان يمارَس في الكنيسة قديماً يُظهر استعمالها لسلطان الحل، كما يظهره الاعتراف الشرعي. وكل اعتراف، علنيًّا كان ام سريًّا، يقتضي لكي ينال التائب غفراناً عن خطاياه ثلاثة شروط : اولاً الندامة، ثانياً الإقرار بالخطيئة، ثالثاً التعويض عنها

أولاً : الندامة

ان المسيحي النائب عن خطاياه، الطالب الغفران عنها من سلطان الحلّ، لا بُدَّ له في أول الأمر أن يفحص ضميره كما لو كان امام منبر الله، مستقصياً عن خطاياه المخالفة لوصايا الله ووصايا الكنيسة، وفاحصاً واجباته نحو الله ونحو القريب و كيفيَّة القيام بواجباته الشخصية في شغله. ويسبق هذا الفحص طلبٌ حارّ الى الروح القدس ليُلهم الخاطئ ما يساعده على معرفة خطاياه والتوبة الصادقة عنها وبعد فحص الضمير بتدقيق ومعرفة الخطايا، يجب أن يندم الخاطئ عليها على الأقل الندامة غير الكاملة أي تلك الندامة الصادرة عن خوف جهنم وفقدان الحق على السعادة الابدية. فيقول في نفسه : اني قد اقترفتُ وارتكبت خطايا جسيمة، فاذا فاجأني الموت قبل أن أتوب عنها أُحرَم السعادة الابدية واستحق العذاب الجهنمي. فكيف اكون عدوًّا لنفسي حتى اعرّضها لعذاب ابدي لأجل ملذّة وقتية؟ فهذه العاطفة، وإِن كانت تدل على ندامة غير كاملة إِذ هي صادرة عن الخوف، كافية لنيل الغفران، على شرط ان تقترن بسر التوبة

وتكون الندامة كاملة اذا كانت صادرة عن محبة الله الحاوي كل الكمالات ومجرّدة عن كل غاية بشرية. فالنادم ندامة كاملة يقول في نفسه: يا ربي انك وهبتني كل النعم الروحية والزمنية، وانت حاوٍ كل الكمالات، فانك تستحق كل محبة انت الاله الحاوي كل الصفات غير المتناهية. انت القدوس، وانا اهنت قداستك. انت الجمال والبهاء، وانا شوّهت صورتك التي قد خُلقت على مثالها. انت الاله المحب البشر وقد تألمتَ وصلبتَ ومُتَّ من اجل خطاياي، وانا لم اكترث لآلامك وصلبك. انت اهرقتَ دمك لأجل خطاياي، فكيف لا اندم عليها، كيف لا أغيّر سلوكي واعيش من الآن فصاعداً عيشة مسيحية صادقة؟ فهذه العواطف وامثالها تعبِّر عن ندامة كاملة فتستحق الصفح عن الخطيئة، حتى اذا لم يتمكن التائب من الاقرار بالخطايا في منبر الاعتراف، بشرط أن يعقد نية الاعتراف عندما تساعده الظروف على الاقرار بها

ثانياً : الاقرار بالخطيئة

و بعد ندامة الخاطئ على خطيئته يتقدم إلى منبر الاعتراف، كأنه يتقدم إلى منبر الله . لان الاعتراف انما هو لله وللذي يغفر الخطايا باسمه

ويُطلب من التائب أن يقرّ بالخطايا المميتة. فهي وحدها تستلزم الاقرار بها . ولا إلزام بالإقرار بالخطايا العرضية ولا بالخطايا الواقعة تحت الريب. الاَّ أنَّه قد يحدث مراراً، ولاسيما في بعض الموادّ، أن الخاطئ لا يعرف حدود الخطيئة العرضية والمميتة ويخشى ان يكون قبوله المرتاب فيه قبولاً تامًّا، فالأولى والأضمن حينئذٍ أن يعترف بجميع خطاياه

المميتة والعرضية، ولاسيما وان الخطايا العرضية التي تقع تحت سلطان الحل تنال الغفران أيضاً. فليقرّ إذن بخطاياه المميتة كلها دون أن يُنقص شيئاً منها. واذا تعمد اخفاء بعضها خجلاً اضاف الي خطاياه السابقة خطيئة الكذب المدعوَّة في السر خطيئة النفاق، و اهان الله بكذبه ورجع من منبر الاعتراف كاسباً لعنةً لا بركة

هذا الإقرار بالخطايا المميتة كلها يجب أن يكون بتواضع، شأن من يشعر بذنبه، واثقاً بان الكاهن سوف يحفظ هذا السر ولو تعرَّض لخطر الموت. ويجب أن يتحاشى في اعترافه عن التطويل المملّ والتفاصيل غير الضرورية، مكتفياً بذكر الظروف التي تغير نوع الخطيئة أو تزيدها إثماً جديداً. مثال ذلك ان الذي يسرق في الكنيسة يرتكب خطئة السرقة وخطيئةً اخرى تسمى خطيئة النفاق او انتهاك القدسيات لكون السرقة تمَّت في الكنيسة فحرقت حرمة بيت الله. وبعد أن يذكر التائب خطاياه بتواضع و بإيجاز، عليه أن يسمع بإصغاء نصائح الكاهن له، وان يقول فعل الندامة عندما يتلو الكاهن عليه صورة الحل التي هي كما يلي:

ربنا يسوع المسيح الاله الذي اعطى هذه الوصية لتلاميذه ورسله الالهيين القديسين ليحلّوا ويربطوا خطايا البشر هو من العلاء يغفر لك جميع خطاياك وذنوبك. وانا عبده غير المستحق إذ اتخذت عنهم السبيل لأصنع الأمر نفسه احلُّك من كل حُرم بمقدار ما اقدر واستطيع وبحسبما انت محتاج اليه، ثم احلّك من كل خطاياك التي اعترفت بها امام الله وحقارتي باسم الآب والابن والروح القدس . آمين

ثالثاً: التعويض عن الخطيئة

ولا يتوهمنّ الخاطئ التائب انه ينال الحلّ عن خطيئته بدون الندامة والقصد الصالح بعدم الرجوع إلى الخطيئة. فقد نسمع بعض المتوهمين الخطّافين ان الكنيسة تحلّ كل خاطئ من خطيئته، وأن الاعتراف يجرّئ الخطأة على ارتكاب الخطيئة. الا فليعلم كل سارق انه لا ينال الحل عن خطيئته ولا الغفران أمام الله ما دام لا يعِد وعداً صادقاً بأنه يرد ما سرقه، فلا تغفر الذنوب إلاَّ بردّ المسلوب. وإذا خسر ما سرقه فيجب ان يكون مستعدًّا للتعويض في أوّل فرصة تمكنه الظروف من التعويض ولو جزءًا ممَّا سرقه

ألا فليعلم كلُّ زانٍ انه لا ينال غفران خطيئته ما لم يبتعد عن الأسباب القريبة التي تحمله على السقوط في الخطيئة، أي إن لم يبتعد عن الشخص الذي يجعله في خطر الخطيئة

أَلا فليعلم كلُّ مغتابٍ وطاعن في صيت القريب انه لا ينال غفران نميمته إلاَّ اذا اصلح الضرر الذي سبَّبه لهذا القريب اذ طعنه في شرفه وازال سمعته الطيّبة التي هي حياته الأدبية

ألا فليعلم كل مردِّدٍ لخطاياه باعترافاتٍ متواترة، من غير أن يظهر اقلّ اصلاح في سيرته، ان هذه الخطايا لا تُغفر الاَّ على قدر ما يكون نادماً عليها ومتخذاً الوسائل لعدم الرجوع اليها

ولكن ربّ قائل يقول: من يقدر أَن يعصِم نفسه عن الخطيئة ؟ فلا يجوز لنا إِذن أن نعترف اذا كنا عارفين أَنا سنقع فيما بعد في الخطيئة

فالجواب أن الاعتراف وُضع للساقطين في الخطيئة والتائبين عنها والمستعدين أَن لا يقعوا فيها. فاذا كان المعترف مصمّماً على الوقوع في الخطيئة ومصرًّا أن يبقى في الحالة نفسها ولا يعزم عزماً صادقاً على الابتعاد عنها، فهذا لا ينال غفران خطيئته لأنه غير تائب عنها . وأَما من يعترف وهو غير واثق من نفسه بعدم الرجوع الى الخطيئة، ولكنه نادم على خطيئته ومستعدّ أَن يتخذ الوسائل لعدم الرجوع اليها، ولاسيما الصلاة لينال نعمة الثبات شاعراً بضعفه، كما قال المسيح : ((بدوني لا تستطيعون شيئاً)). فاذا سقط هذا التائب مع حسن استعداده فلا ييأَسْ، ليَتَشجَّع وليعلم أن الاعتراف لمثل هؤلاء التائبين الضعفاء، اذ لمثل هؤلاء قال السيد المسيح : ((تعالوا إليَّ ابها المُتعبون وانا أُريحكم)). لأَجل هؤلاء أَتى السيد المسيح على الارض وقال : ((لا يحتاج الاصحَّاء إلى طبيب بل ذوو الاسقام)) . فليعترف هذا الخاطئ الضعيف، فالاعتراف يقوّيه ويساعده على الثبات في النعمة، وقد يصبح من القديسين

وأَما ما يفرضه الكاهن من الصلوات والواجبات على التائب، وهو ما يدعى ((القانون))، فهو نزر قليل مما كانت تفرضه الكنيسة في الاجيال الأولى. وما تساهلها اليوم الا رأفةً منها بضعف التائب. ولكن هذا لا يمنع الخاطئ من الاعتقاد أَن عليه ديوناً باقية يجب أَن يوفيها وإِن نال الحلّ عن خطاياه وتاب عنها. فإن هذه الخطايا تستوجب قصاصات لا

يزال مطلوباً منه الوفاء عنها؛ فإن لم يوفِ عنها في هذه الدنيا يبقى وفاؤها في الآخرة في عذابات المطهر التي لا يستهان بها

لذلك لم يكتفِ القديس بطرس بالبكاء مرة واحدة على جحوده السيد المسيح بل بكى عليه كل حياته. لذلك كان يرى بعض المسيحيين ان الاستشهاد نفسه قليل للوفاء عن خطاياهم . لأجل التوبة عن الخطايا توّغل عدد من المسيحيين في براري الصعيد وفي قفار اليهودية فقضوا حياتهم في التقشف والصلاة والزهد ومحاربة الجسد والابتعاد عن كل ملذّات الدنيا وعن اسباب الخطيئة. ولأجل التوبة عن الخطيئة ملأ الرهبان الديورة فحرثوا الأرض، وجفَّفوا المُستنقعات، وبنوا الكاتدرائيات، وحافظوا على المخطوطات، ومارسوا كل الأعمال الخيرية، وحفظوا التمدّن في العالم. لأجل التوبة عن الخطيئة يترك شبان كثيرون في عصرنا العالم مع غناه وجاهه، فيهجرون المُدن والأهل والملذّات الدنيوية والأفراح العصرية ومستقبلاً باهراً حافلاً بالعظائم، ويحجزون على حرّيتهم منعكفين على الصلاة والصوم والتوبة وممارسة الفضائل، ليستعدوا لملاقاة ربّهم ويفوا الحساب الذي استحقته خطاياهم

ونحن لا نزال نخطأ ونسرح ونمرح قائلين في نفسنا : قد اخطأنا فأيُّ شرٍّ اصابنا ؟ كأَن الايام تدوم لنا، او كأنه لا ديّان رهيب ينتظرنا، ولا آخرة نعاقَب فيها، او كأَنَّ الله تعالى قد كفل لنا الندامة في الساعة الأخيرة. ومع ذلك نحن نعلم أن السيد المسيح قد سبق فحذَّرنا بان الموت يأتي كالسارق، وقد رأينا ولا نزال نرى كثيرين من زملائنا ممن كانوا أشدّ عافيةً منَّا يتساقطون كأوراق الخريف، ونحن لا نعي. تبلغ مسامعنا حوادث المصائب التي تملأ

الأرض، ونعجب قليلاً، ونقول: هذا عقاب الخطيئة؛ ثم يغلب علينا الطيش وننسى ان علينا خطايا يجب الوفاء عنها . ونتعرّض للموت الفجائي بلا توبة

فلا تسمح اللهم ان نبقى غافلين إلى النهاية. ولا تسمح أن يفاجئنا الموت ونحن في حالة الخطيئة. بل اعطنا القوَّة منذ الآن لنتوب عن خطايانا ونكون مستعدين للساعة الاخيرة . ارحمنا يا أرحم الراحمين . آمين

ايمان الكنيسة بسر الافخارستيا

قد برهنَّا في احدى العظات السابقة أن السيد المسيح وعد بإعطاء البشر جسده ودمه الأطهرَين. ورأينا انه قام بوعده هذا ليلة آلامه، برسمه سر الافخارستيا، واعطى رسله هذا السلطان ليفعلوا مثل ما فعل. وقد آمن الرسل بحضور السيد المسيح في سر الإفخارستيا، بدليل قول القديس بولس ((أي انسان أكل خبز الرب او شرب كأسه وهو على خلاف الاستحقاق فهو مجرم إلى جسد الرب ودمه ... وهو يأكل دينونةً لنفسه إِذ لم يميّز جسد الرب)) (1 كورنثس 11 : 27 – 29) وقد آمن العالم المسيحي بهذه العقيدة، مهما صعب فهمها، و ايمانه ثابت في كل زمان ومكان. وهذا الايمان بحضور السيد المسيح الحقيقي في الافخارستيا رفع درجة الانسانية وانبت فضائل خاصة لا يمارسها الاَّ من يؤمن بهذا السر الالهي. وهذا ما نراه اليوم بالإيجاز

قد آمن العالم المسيحي بحقيقة حضور السيد المسيح في سر الافخارستا. فكان المسيحيون الأولون مواظبين كل يوم على كسر الخبز وعلى تناول جسد الرب. وقد كانت المحكمة تقضي بان لا يبوحوا بهذا السر امام غير المؤمنين، عملاً بقول السيد المسيح: ((لا تعطوا القدس للكلاب ولا تلقوا جواهركم قدام الخنازير لئلا تدوسها بأرجلها وترجع فتمزقكم)). (متى 7 : 6) فكانوا يحذرون حضور الوثنيين في تقدمة الذبيحة الالهية فيختفون في المغاور والدياميس، ويأمرون الموعوظين الذين بدأوا يتعلمون حقائق الايمان ويمارسون واجباته بان

يخرجوا من الكنيسة بعد سماع الانجيل، ويشدّدون بان لا يبقى واحد منهم، وعندما يقربون من التلفظ بدستور الايمان ثم بالكلام الجوهري يزدادون حرصاً، فيهتف الشماس قائلاً : الابواب الابواب، بحكمةٍ فلننصت

هذا السر العظيم لم يقدر المسيحيون على إخفائه تماماً عن غير المسيحيين، حتى تسرَّب شيء منه إلى الوثنيين. فكانوا يتهمون المسيحيين، على قول الكاتب مينوسيوس فيلكس، تهماً فظيعة، منها ما كانوا يقولون ((ان المسيحيين يقرّبون على مذابحهم ولداً مغطى بالدقيق، والكاهن يضرب هذه الضحية الطاهرة؛ وحينئذٍ يهجم هؤلاء الأرجاس على الضحية فيلحسون دمها بشراهة ثم يتقاسمون الأعضاء، ثم يُقسمون الايمُن المغلظة بعدم إفشاء السر ويقبّلون بعضهم بعضاً)). فكلنا نفهم بذلك أن المسيحيين كانوا يعتقدون ان في سر الإفخارستيا ذبيحة حيَّة

ومع التحفظ لعدم كشف هذا السرّ فقد كتب القديس يوستينوس الفيلسوف لكي يدافع عن المسيحيين في تقدمة سرّ القربان المقدس. وتعرفون أَن هذا القديس فيلسوف شرقي من فلسطين من مدينة نابلس وانه عاش في القرن الثاني، وقد طاف في أَنحاء المعمور المتمدن، وعرف علوم عصره كلها قبل أن يهتدي إلى الايمان بالمسيح. وهذه كتابته الى قيصر والى مجلس الشيوخ والى الشعب الروماني : ((أما نحن، فبعد أَن يعتمد من يؤمن بإيماننا وينضمّ الينا، نقودُه إلى محلّ اجتماع الأخوة، ونصلّي معاً بحرارة لأجل المعمَّد ولأجل جميع الأخوة المنتشرين في العالم، حتى نكون نحن الذين عرفنا الحقيقة سالكين سلوكاً حسناً

ومحافظين على الوصايا لكي نخلص انفسنا. ثم نعانق بعضنا بعضاً. وبعد ذلك يقدّمون للمتقدم بين الاخوة خبزاً و كأس خمر ممزوجة بالماء، فيتناولها ويقدّم الشكر والتمجيد للّه الآب بواسطة الابن والروح القدس على كل ما نلنا من النعم. وبعد أَن ينهي المتقدم الصلوات يجيب الشعب آمين آمين. اي هكذا فليكن. ثم يقدّم المدعوّون شمامسة لكل من الحاضرين جزءًا من الافخارستيا. و لا يجوز أن يشترك فيه الا من آمن بعقائدنا وقبل حميم المعمودية للميلاد الثاني وعاش بحسب وصايا السيد المسيح. ونحن لا نقبل هذه الاشياء كأَنها خبز بسيط وشراب عادي ... ولكنه جسد المسيح المتأَنس)) . فهل يقدر القديس يوستينوس ان يكون في هذا الموضوع اكثر ايضاحاً مع الوثنيين ؟

وقد كان المسيحيون يستعملون كلمات اصطلاحية تدل على ايمانهم، ولا يفهمها غير المؤمنين . ومعها كلمة سمكة.

وكلّ حرف من هذه الكلمة يدلّ على القاب السيد المسيح. لذلك كانوا يمثّلون السمكة في رسومهم الدينية في أَماكن مختلفة

والى هذا المعنى تشير تلك الكتابة الشهيرة المكتشفة أخيراً وهي ترتقي إلى القرن الثاني . وقد وجدت على قبر القديس ابرقيوس مطران هيروبوليس في فريجية، أي منبج. وهذا نصّها : ((أيها الساكن في هذه المدينة الشهيرة، قد بنيتُ في حياتي هذا القبر لكي اضع فيه رفاتي يوماً. فاسمي ابرقيوس . أَنا تلميذ الراعي البريء من العيب الذي يرعى خرافه الروحية في السهول والاودية . فهو تنازل وعلَّمني كلام الحياة . هو قادني في السرّ الى رومة

فرأَيت المدينة المالكة، مدينة القياصرة اللابسة ثوباً وحذاء ذهبيين. وقد رأَيت هذا الشعب القدير اللابس في أَنامله خواتم جميلة. ثم طفت عند رجوعي في سهول سوريًّا ومدنها العديدة وما فوق الفرات. فرأَيت في كل مكان الاتفاق بين العقول والقلوب. فالإيمان يقدّم لجميع المؤمنين طعاماً سماويًّا واحداً، وهو سمكة الينبوع المقدّس، وهي السمكة الالهية التي قبلتها أوّلاً عذراء لا عيب فيها. وهي تقدّم لمحبّي الله الآب لكي تُؤكَل عند الاشتراك بالنبيذ العذب المقرون إلى خبز القمح. هذه هي الكلمات التي حفرتها أنا أَبرقيوس في الثانية والسبعين من عمري على الرخام. فكل من قرأَ هذه الكتابة واشترك في ايماني يصلي لأجلي))

فهذه الكتابة تدل على ايمان الكنيسة العام بالسمكة التي هي مأكل المؤمنين في الذبيحة الالهية. وهذه الكتابة هي شبيهة بكتابة اخرى شهيرة اكتشفت حديثاً في مدينة اوتين وهي ترتقي على رأي العالم رُسّي إلى القرن الثاني بعد المسيح : ((ان السمكة السماوية ابن الله، من أعماق قلبه الاقدس، قد أوْحت لنا كلام الله، واتخذت بين المائتين حياة خالدة. فيا ايها الصديق اغسل قلبك في المياه الالهية، في مياه الحكمة التي لا تنضب، والواهبة الكنوز. تناول طعام مخلِّص القديسين، الطعام الحلو كالشهد . خذ وكل واشرب، فالسمكة هي بين يديك. فان فرحي في السمكة وهذه رغبتي العظيمة ايها الرب المخلِّص))

ففي هذا التلميح اشارة واضحة إلى الايمان المسيحي عند الأجيال المسيحية الأولى. ومن المستحيل أن يكون اكثر وضوحاً في كتابات كانت بين يدي الوثنيين. وعندما استطاع

القديسون ان يتكلموا على هذا السرّ بجرأَة اعظم، أَفاضوا في تبيان ايمانهم الحيّ. لنسمعهم يقولون ما كتبه القديس كيرلس الاورشليمي : ((ان الخبز والخمر، قبل الابتهال إلى الروح القدس، اللَّذين لم يكونا الاَّ خبزًا وخمرًا، يصبحان بعد الابتهال جسد ودم المسيح. فلنقبل هذا السرّ متأَكّدين أَنه جسد المسيح ودمه فإن جسد المسيح تحت شكل الخبز، وتحت شكل الخمر دم المسيح الذي يتحد بأعضائنا. فنحن إذن خرستوفوري اي حاملو المسيح. فلا ننظر إذن إلى الخبز والخمر كما إلى خبز وخمر بسيطين، لانهما بحسب قول المسيح جسد المسيح ودمه. فليعلمك الايمان هذه الحقيقة، وإِن نفرت منها حواسّك، فلا تحكم بحسب ذوقك، بل كن متأكداً أَنك نلت نعمة عظيمة بالحصول على جسد المسيح ودمه))

ويسهل علينا أَن نعدد اقوال الآباء القديسين في كل عصر ومكان. لكنَّ قداسنا وحده المرتقي إلى عهد القديس يوحنا فم الذهب، ومنه إلى القديس باسيليوس، ومنه إلى القديس يعقوب الرسول، يعلِّمنا في دورة الشروبيكون، أي في الطواف بالقرابين المعدة للتقديس، أن نستعد لاستقبال ملك الكل إِذ تحِفُّ به المراتب الملائكية بطريقة غير منظورة؛ يعلّمنا الوقوف بخوف لنقدم بسلام القربان المقدس؛ يعلّمنا أن نستعد لنزول ملك المجد على المذبح هاتفين: أُوصَنَّا في الأعالي، مبارك الآتي باسم الرب؛ يعلّمنا أن نهتف آمين، أي هكذا فليكن، بعد سماعنا الكلام الجوهري. وتلك المطانيات أي السجدات العديدة التي نكرّرها بعد كلمات التقديس ما هي إِلاّ افعال ايمان بحضور ملك الملوك. وبعد التقديس يعود الكاهن فيبتهل إلى الله قائلاً: ((واصنع هذا الخبز جسد مسيحك المكرّم، وما في هذه الكأس دم مسيحك المكرّم، إِذ قد نقلتهما بروحك القدوس)). وعندما يقسِّم الكاهن الأجزاء المقدسة

قبل التناول يقول: ((يُقسَّم ويفصَّل حمل الله ابن الآب الذي يُفصَّل ولا ينتقص ويؤكل كل حين ولا يفنى اصلاً بل انه يقدّس المشتركين فيه))

وما أَجمل ما نتلوه من أفعال الايمان عندما نستعد للتناول: ((انا أُومن يا رب واعترف انك انت المسيح ابن الله الحي الذي أتي إلى العالم ليخلِّص الخطأَة الذين انا اوّلهم. وأيضاً أومن بأَن هذا جسدك الطاهر ودمك الكريم)) . ثم نخاطب السيد المسيح في القربان فنقول : ((اذكرني يا رب إِذا اتيت في ملكوتك)). وفي باقي الصلاة عواطف التواضع والتوبة والتخشع التي تستذرف الدموع

عندما يقدّم الكاهن القربان ليناول المؤمنين يقول : ((عبد الله يتناول جسد ودم ربنا والهنا ومخلصنا يسوع المسيح الكريم المقدّس لمغفرة خطاياه وللحياة الأبدية .)) وما أَجمل ما نتلوه في دورة قداس البروجبازمانا، أي الاقداس السابق تقديسها ((الآن القوات السماوية تخدم معنا بحالٍ غير منظورة، فها قد أَقبل ملك المجد))

فإيماننا نحن الشرقيين بسر الإفخارستيا ثابت غير متزعزع لم يعترِه كسوف لا في بلدة من بلادنا ولا في عصر من العصور.

فلا يخطُرَنَّ ببال أَحد اننا ننتظر أو نقبل، أو قد قبلنا في الماضي تعليماً اتانا من الغرب في العصور المتأخرة بشأن ما تسلمه آباؤنا واجدادنا عن الرسل وعن السيد المسيح نفسه

لقد آمن اذن العالم بأسره، شرقاً وغرباً، وفي كل عصر، بسرّ الافخارستيا الذي يفوق الادراك. وأن ما يُقدَّم اليوم للقربان الأقدس من مظاهر الاجلال والاكرام لدليل ساطع على ذلك الايمان. وهو يفوق كل اكرام في العصور السالفة. وحسبنا أن نذكر من تلك المظاهر الاكرامية المؤتمرات التي تجري مرةً كل سنتين في عاصمة من عواصم العالم، أو في احدى المدن التاريخية. فتشترك فيها جميع الشعوب بوفود تأتي من كلّ صوب وحدب، وتزدان الشوارع التي يمرّ بها القربان المقدّس، وتشترك الحكومات نفسها في الطوافات بطريقة رسمية، وترتفع اقواس النصر، وتعلو اصوات التهليل، وتمتلئ السهول من مستمعي القداس الالهي، وترنّم اجواق المرنمين، ويتقدم من مائدة الخلاص ألوف مؤلفة من المؤمنين والمؤمنات، ويتمجَّد اسم الرب. هذا، ويعتقد المسيحيون ان كلّ ما يقومون به من مظاهر الاكرام ليس بشيءٍ بالنسبة إلى ما يستحقه القربان المقدس من التجلة والعبادة

أَجل ان العالم بأَسره قد آمن بسرّ الإفخارستيا .وهذا السرّ قد بثَّ الحياة الروحية الحقة في العالم. ففي كلِّ يوم يقدِّم الذبيحة المقدسة فوق المليون من الكهنة. وكل يوم يحضر هذه الذبيحة عشرات الملايين من المسيحيين. وكثيرون منهم يتناولون سر القربان . والكنائس في العالم بأسره مفتوحة كل يوم لزيارة القربان، فيأتي المؤمنون ساجدين، ضارعين، خاشعين، طالبين نعم الله، وحاصلين على قوّة جديدة تساعدهم على احتمال مكارِه الحياة . وهذا القربان يشعّ في كل كنيسة ببهاء يفوق بهاء كواكب السماء . هذا القربان هو الذبيحة التي ترفع غضب الله عن العالم وتستجلب رضاه، وبواسطتها ينال الله مجدًا يفوق بكثير ما يلحقه من اهانات البشر. هو الذبيحة التي تجعلنا مقرَّبين إلى الله. وهو أيضاً ذلك الغذاء

الذي تقتات به نفوسنا. هو القربان الذي يعزّينا في مضايقنا. وهو ماكثٌ بيننا كضيفٍ مستعدٍّ دائماً لاستقبالنا. هو خبز الحياة، قوّة الشهداء الذين، بعد تناولهم، كانوا يقابلون العذاب بكل صبر وفرح، ولا يبالون بأنياب الاسود في المسارح الرومانية. هذا القربان هو تعزية النساك في وحدتهم، يرون كل لذة روحية بالقرب منه. فهو يساعد الراهب والراهبة على أن يعيشا بعيداً عن العالم وعن ملذّاته مفضّلين جوار المسيح على كل افراح العالم وملاهيه

نسمع تبّاع بعض شيع البروتستانت يقولون، عندما يريدون أن يؤسسوا ديراً، أن الحياة الرهبانية غير ممكنة بدون القربان. ومنهم من يدفعهم هذا الاعتقاد الى الشعور بضرورة الاتحاد بالكنيسة الكاثوليكية. وكثيرون منهم، ولا سيما في انكلترا، ينضمون افواجاً افواجاً إلى الكنيسة الكاثوليكية، وحينئذٍ يزداد تمتّعهم بمنافع الايمان بالقربان المقدس

هذا القربان المقدس هو مدرسة المحبة. وقد شاهدنا بعض المشاريع الخيرية لم تستطع أن تثبت بدون الايمان بالافخارستيا. فهو يعلّم راهبة المحبة أن تضحي بذاتها لخدمة المريض ولو كانت فيه أمراض معدية. وهو الذي يعلّم العفاف. وهو الصائن لبتولية الرهبان والراهبات و ممارسي الطهارة والعفَّة بين العالميين. هو الذي يعلّم الكاهن العفَّة، ليقدر أن يحمل بين يديه كل يوم إِله الطهارة. ويعلمه أن يحمل القربان إلى المرضى والموبوئين ليعطيهم الزاد الأخير قبل سفرهم إلى الأبدية. هو القربان الذي يعلّمنا فضيلة التواضع، على مثال اله المجد الذي تواضع حتى انه جعل نفسه تحت اشكال الخبز والخمر. هو القربان صائن العفة والامانة الزوجية. فهو حارس لعفة النساء اكثر من كل رقيب. فليترك

المتزوجون نساءَهم يتناولنَ تناولاً حقيقيًّا بإيمان، ولا يخشوا بعد ذلك على عفتهنَّ وامانتهنَّ شيئاً. و كذلك النساء إذا سعَينَ ليكثر رجالهم التقرب الى سر الافخارستيا يكفلنَ بذلك امانتهم نحوهنَّ. هو القربان المعطي المهابة والوقار لكنائسنا. وكم ينقبض القلب عندما يدخل أحدنا كنيسة أو معبداً ل فيه القربان!

فهوذا القربان امامنا في الكنائس. فلنكرّمه بخشوعنا و تعبُّدنا. لنعمل اشارة الصليب بخشوع عندما ندخل الكنيسة. ولنشترك مع الكاهن عندما نحضر ذبيحة القداس. لنقُل في قلبنا آمين عندما نسمع الكلام الجوهري. ولنحنِ رؤوسنا للرب عندما يباركنا الكاهن ويقول: السلام لجميعكم، ويدعونا إلى حني الرؤوس. لنكرّم القربان بحضورنا هذه الذبيحة الالهية ما امكننا. فقد كان آباؤنا و اجدادنا يحضرونها كل يوم. لنكرّمه بالتناول المتواتر، لنقدر أن نعيش عيشة المسيح. ولنكرّمه بزيارتنا الكنيسة في اوقات الفراغ فهو يكون قوْتَنا وقوَّتنا وتعزيتنا. وبعد أن نظهر ايماننا بهذا السر العظيم على هذه الأرض يتجلّى لنا بأبهى سناء في السماء، في افراح الابدية . آمين

تناول القربان

ان الموضوع الذي نتناوله في حديثنا هذا في غاية الخطورة . ولكننا نأسف على كوننا اعتدنا الكلام على الأسرار وعظمتها بدون أن نعيرها الالتفات الكافي. فتُذكر امامنا اعظم الحقائق ولا نبذل جهدنا في أن نسبر غور معانيها. تعلَّمنا التعليم المسيحي في الصغر وهي نعمة. الا اننا حفظنا في ذاك الوقت ألفاظه ولم نبذل جهدنا لنتأَمل في معانيه. واني في مسأَلة التناول اخشى الوقوع في هوتين: هوة يقع فيها الذين لا يقدرون عطية الله فيبتعدون عن هذه النعمة العظيمة؛ وهوة الذين يُقدمون على التناول بلا ايمان حيّ ولا محبة كافية فيخسرون غالباً منافعه العظيمة. وهاءَنذا اجتهد في أن ابسط لكم أَولاً حاجة نفوسنا الى التناول، وثانياً مفاعيل التناول في نفوسنا، وثالثاً ضرورة التقرُّب إلى القربان المقدس . فلنطلب إلى الذي قبل ان يكون ذبيحة عنا وجعل ذاته طعاماً إلهيًّا لنفوسنا وأَراد ان يسكن في هياكلنا، أن نفهم عطية الله لنحسن استعمالها

أولاً : حاجة نفوسنا الى التناول

التناول حاجة الطبيعة فينا، نشعر بها ولا تزال النفس تصبو اليها حتى تتم رغباتها. يتناول جسمنا غذاءَه من الطبيعة : من النبات والحيوان. ولا نفْقه كيف تتحوَّل هذه الموادّ الى جسمنا. ويتفنَّن الانسان في إِصلاح أنواع الأطعمة، ويصرف احياناً في هذا السبيل أموالاً

طائلة بل ثروات كبيرة، كما كان يفعل الرومان وغيرهم من الأمم المتوغلة في الترفه. وهذا الطعام الجسدي الغزير، مع اطفائه شهوة الجوع ومع ما فيه من اللذة، لا يروي شهوة الإنسان إلى ما هو أَعلى، ولا تزال النفس تفكر ف طعام أسمى

يتناول عقلنا من معارف البشر. فيطالع كتب أشهر الفلاسفة ويسعى هكذا في طلب الحقيقة. ويطالع أَشهر المؤرخين ويسعى بذلك لمعرفة التاريخ الصادق، ويستلذ قصائد الشعراء، ويطرب من فصاحة الفصحاء، ويتوغل في معرفة أدلَّة البلغاء. وبعد ان يطالع أَشهر الشعراء والمؤرخين والفلاسفة والخطباء، من كل أُمة، ترى الانسان، مع شعوره ببعض اللذة، يرجع خائباً متضوّراً جوعاً دون أن يجد الضالة التي كان ينشدها. واذ لا تجد نفسه الراحة التامة في معرفة الحقيقة تجعل تردّد قول الحكيم : من ازداد علماً فقد ازداد غمًّا. ولا تزال نفسه تشعر بحاجة إلى طعام أَسمى لا تراه في كلام البشر وحكمتهم

ويتناول القلب من اقوال الحكماء، ويسمع النصائح المفيدة والحِكَم الرادعة، فيتعلّم طريق الفضيلة، ويسمع ما يزجره ويردعه عن الرذيلة. لكنه يشعر بأن بين القول والعمل بَوْناً شاسعاً. يشعر ((بأن الخير الذي يريده لا يعمله، والشرّ الذي لا يرده أَياه يعمل))، فيصيح مع الرسول : ((الويل لي انا الانسان الشقي من ينقذني من جسد الموت هذا)). فيرجع قلبه خائناً، لأن الفضيلة يعسُر الارتقاء اليها، والرذيلة زلاّقة تفضي إلى الهاوية . فيصرخ الانسان : ان الخير الحقيقي بعيد عني. ويشعر الإنسان بأن المآكل لم تشبعه، والحقيقة لم تروِهِ، والخير لم يتملك في قلبه، فيهتف قائلا : ((لماذا انتِ حزينة يا نفسي

ولماذا تقلقيني ؟ توكلي على الله فانه خلاص وجهي والهي)). ثم تتصاعد من اعماق قلبه عواطف الشوق نحو الله، فيهتف : ((لقد خلقتني يا الله لأجلك وقلبي لا يجد راحة الاَّ فيك)). أما من طعام سماوي يملأ شهوات نفسي؟

فهذا الفراغ الذي يشعر به الانسان ألا يملأه الله بطعام سماوي فيسدّ جوعه الروحي ويروي ظمأ نفسه العطشى ؟ فها هي ذي الديانة المسيحية تجيبنا بأن الله قد ملأ هذا الفراغ وأروى ظمأَنا. هوذا ابن الله ينزل من السماء ويتأَنس، ويقدّم جسده ودمه مأْكلاً و مشراً لنفوسنا. قال السيد المسيح للسامرية : ((ان كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً، وأمَّا من يشرب من الماء الذي اعطيه أنا فلن يعطش الى الابد)) وقال ايضاً: ((خذوا، كلوا، هذا هو جسدي. اشربوا من هذا كلكم، هذا هو دمي. اصنعوا هذا لذكري ... من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الابدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير... كما أرسلني الآب الحيّ وأَنا أَحيا بالآب، فالذي يأْكلني يحيا هو ايضاً بي ... من يأْكل هذا الخبز فانه يعيش الى الأبد)).

فقد أَوجد لنا السيد المسيح هذا الطعام الالهي الذي تتوق اليه نفوسنا، وأَمرنا أَن نأكل منه. فالتناول هو طعام الهي، وهو حلول الألوهية فينا. اننا لا نفهم ذلك كما اننا لا نفهم كيف يتحوَّل الطعام إلى لحمنا ودمنا، ولا كيف وُلد المسيح من العذراء، ولا كيف دخل على التلاميذ والأبواب مغلقة. فالسيد المسيح يريد أَن نأْكل جسده ونشرب دمه. فما الغاية من التناول، وما مفعوله؟

ثانياً: مفاعيل التناول

التناول يغذي نفسنا، كما أن الطعام المادي يغذي جسدنا. ويزيدنا اتحاداً بالسيد المسيح التناول يغذي نفسنا بالنعمة. فكما ان الطعام المادي يحفظ الحياة ويزيل الضعف وينمي الجسد ويقويه؛ كذلك التناول يقوينا لمحاربة أهوائنا المنحرفة وأباطيل العالم وحيل الشيطان، ويساعدنا على ممارسة الفضائل المسيحية

مفعول التناول المحافظة على حياة النعمة. فكما أن الجسد لا يعيش إِن لم نتعهَّده بالغذاء، كذلك النفس لا تعيش إِن لم نتعهَّدها بالتناول. فالموقدة مهما كان نارها شديداً، تنطفئ إِن لم نرمِ فيها وقيد الحطب او الفحم او الزيت. كذلك حياة النفس، إِن لم نقدم لها القربان المقدس

التناول سر الأحياء، وليس من غايته أن يهب النعمة الأولى، فهو لا يُعطى الا للمتمتعين بحياة النعمة. بل غايته حفظ النعمة كما أن الطعام يحفظ الحياة للحاصلين عليها. فالمعمودية تعطي النعمة الأولى للنفس، والميرون يثبتها، والتوبة ترجعها، ومسحة المرضى تُطهِّر النفس، وسر الكهنوت وُضع لتوزيع الاسرار، وسرّ الزيجة يهب نعمة ليعيش الزوجان عيشة مسيحية ويُحسنا تربية الاولاد. اما سرّ التناول فهو للمحافظة على النعمة الموجودة في النفس

التناول يقوي ضعفنا. فنحن ميَّالون إلى الخطيئة، وشهواتنا الفاسدة تحاول أن تهبط بنا إلى السفليات، والعالم يطغينا بكل ما فيه من الملاهي. أَما التناول فيطفئ فينا شهوات

الجسد، ويساعدنا على ان ننتصر على العالم والشيطان. قال القديس بولس ((إِني أَقدر على كل شيء بالذي يقويني)). ففي التناول نشاط الضعفاء، وحياة النساك، وتعزية الحزانى، وقوَّة العذارى. لذلك نسمع القديسة أغنيسيا تقول: ((ان سيدي يسوع قد وضع في اصبعي خاتماً كي لا يكون لي حبيب آخر. أَنا عروسه، وقد وضع على هامتي اكليلاً. أحبه وأنت عذراء ، أَتحد به وأَنا طاهرة، أُقبِّله وأَنا عفيفة، وهوذا دمه قد صبغ خدي))

ان فضيلة البتولية غير معروفة عند الأمم التي ليس عندها القربان المقدس. وهذا هو سر بتولية الرهبان والراهبات وكل العالميين المحافظين على بتوليتهم

القربان الطاهر يقوّي فينا الفضيلة. فيقوّي ايماننا، ويعلّمنا أن نسعى لِما هو أبدي لا لِما هو زمني فقط، وأَن نهتم بما لا يرى اكثر من اهتمامنا بما يُرى. يعلمنا أن نحتقر الدنيويات ونجاهد لِما هو أبدي وسماوي.

والقربان الطاهر يزيد فينا الرجاء. فالذي تنازل وشرفنا بحضوره لا يبخل علينا بالنعم الضرورية للخلاص ولا بسمائه. وهو يعلمنا ((ان ضيقنا الحالي الخفيف ينشئ لنا ثقل مجد أبديًّا لا حدّ لسموّه))

القربان الطاهر يزيد محبتنا. فبعد أن وهبنا السيد المسيح كنوز نعمه وتأنس و مات لأجلنا، أفلا نهب له حياتنا ؟ ((حبيبي لي وانا له)) وأي اتحاد اعظم من اتحاد القربان بالنفس. فالعنصر الالهي يمتزج بالعنصر البشري؛ وكما أن العنصر الأعلى يبتلع الادنى، هكذا يرفع العنصر نفسنا إلى حياة جديدة ويجعلنا نحيا بهِ. قال القديس بولس : ((انا

حيّ، لا أنا بل انما المسيح حيّ فيَّ)) ومن ثم يجب ((ان يكون فينا من الأفكار والأخلاق ما هو في المسيح يسوع))

يجب ان تكون فينا افكار السيد المسيح. فالسيد المسيح لم يكن له غاية الاَّ اتمام إِرادة ابيه الازلي من المهد إلى اللحد واتمام أقوال الأنبياء : ((طعامي ان أعمل مشيئة من أرسلني واتمم عمله.... لا تكن مشيئتي بل مشيئتك)). وعلى هذا الوجه يجب أن يكون اهتمامنا بإرادة الآب السماوي، فنلتهب حبًّا، ولا يكون لنا رغبة الاَّ في اتمام مشيئته.

اخلاق السيد المسيح هي محبّة القريب. فقد تأنس ومات لأجلنا، وطلب منَّا أن نحبه وان نقرن محبة القريب بمحبته، حتى ان القديس يوحنا الحبيب قال: ((ان قال احد انه يحب وهو لا يحب قريبه فهو كاذب لأنه كيف يحب الله الذي لا يراه، وهو لا يحب قريبه الذي يراه)) ؟ محبتنا للقريب يجب ان تكون بالفعل لا بالكلام فقط. وهي تبتدئ بعدم الضرر في ماله او صيته او عرضه، وتنتهي بمعاملة القريب معاملتنا لشخصنا. فالذي نريده لذاتنا يجب أن نريده للقريب أيضاً

أَخلاق المسيح اخلاق طاعة. فيجب أن نتعلم الطاعة من الذي أطاع حتى الموت موت الصليب

اخلاق المسيح اخلاق تواضع. وهو القائل: ((تعلموا مني فاني وديع ومتواضع القلب))

اخلاق المسيح اخلاق تجرُّد. وهو القائل ((ان ابن البشر ليس له موضع يسند اليه رأسه)) وهو المولود في مغارة، والمائت عرياناً على صليب

مفعول التناول هو القيامة من الأموات والحياة الابدية، قال المخلص : ((كما ارسلني الآب الحي وأنا أحيا بالآب، فالذي يأكلني يحيا هو أيضاً بي ... من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الابدية وأنا اقيمه في اليوم الأخير))

ثالثاً: ضرورة التقرب الى القربان المقدس

بعد ان رأَينا جميع المنافع الناجمة عن تناول القربان، لم يبقَ لي من داعٍ إلى التحريض على التناول. فإن فيه حفظ النعمة، ونموّها، والمساعدة على ممارسة الفضائل، والتخلق بأخلاق المسيح، وعربون القيامة من الموت والتمتع بالسعادة الأبدية

فالمسيحيون الاولون كانوا يتناولون كل مرة يحضرون الذبيحة الالهية. اما عدم تناولهم كل يوم فلأن قلة الكهنة لم تكن تسمح لهم بذلك. ولما كثر عدد الكهنة في القرن الرابع، و اصبح سهلاً على المسيحيين ان يحضروا القداس كل يوم، أصبح التناول يوميًّا. حتى أن القديس يوحنا فم الذهب كان يشبِّه القداس بمائدة، ويشبِّه الذين لا يتناولون بمن يجلس إلى المائدة ثم يمتنع عن الأكل . وفي العصور المتوسطة ، صار تردد في وجوب التناول. فانقسم المؤمنون إلى قسمين : قسم يقلِّلون من التناول بحجة انهم لا يستحقون هذه النعمة. وفي الحقيقة انه لو كان القربان معطى لنا بسبب استحقاقنا لما حقَّ لأحد أن يتناول، ولا للقديسين انفسهم. إلا أننا نتجاسر وندنو من القربان تلبية لدعوة المسيح القائل : ((تعالوا

إلي يا جميع المتعبين والمثقلين وأنا أريحكم))؛ وقسم حافظ على التناول المتواتر تلبية لرغبة السيد المسيح

وقد فصلَت الكنيسة هذا المشكل بصوت أَحبارها الأجلاء. وهي ترغب أن نُقدم على التناول المتواتر، نظراً إلى رغبة السيد المسيح لا إلى فضل استحقاقنا. وتطلب أن نتناول ليس فقط في ساعة الموت، قابلين القربان كزادٍ أخير قبل أن نمثل امام الديان الرهيب، وليس فقط في ساعة الأخطار، أو على الاقل مرة واحدة في السنة، وهذا أَمرٌ ضروري يُعَدُّ من لا يقوم به بعيداً عن الله ومرتكباً إثماً كبيراً، بل ترغب الكنيسة أن نتناول بتواتر في كل الآحاد والاعياد؛ بل ترغب ايضاً ان يتناول أبناؤها التناول اليومي اذا ساعدتهم الظروف على ذلك. ولا تقتضي منهم استعداداً آخر سوى الابتعاد عن الخطيئة المميتة مع النية المستقيمة بأَن يعيشوا عيشة مسيحية يتمجَّد بها الله . والكنيسة واثقة بأن من يتناول يوميًّا او بتواتر بنية صالحة لا يلبث أن يبغض الخطيئة المميتة وينفُر من الخطيئة العرضية ويصلح أكثر عيوبه

فيا ايها المبتعدون عن التناول، تذكروا أن فيه غذاء نفوسكم وقوةً تساعدكم على محاربة أَعداء خلاصكم، وعلى ممارسة الفضائل، وعلى التخلُّق بأخلاق السيد المسيح، وهو عربون قيامتكم من الموت والحصول على السعادة الابدية

وانتم ايها المتناولون القربان الطاهر بتواتر، تذكروا أهمية هذه النعمة، وضعوا في قلوبكم وجوب اعطاء المثل الصالح والتشجيع لغيركم على اتباع امثالكم. وأَظهروا انفسكم احباء

المسيح ورسله، لتظهر حياة السيد المسيح في سلوككم، فيرى الناس اعمالكم الصالحة ويمجدوا اباكم الذي في السماوات . آمين

الكاهن

رأينا في ما سبق أن أَبانا آدم قد خسر بالخطيئة الأصلية النعمة الالهية، وان السيد المسيح تأنس وصُلب فوفى عن الخطيئة و استرجع النعمة للجنس البشري. وقد سهَّل لكل من اراد من الناس أن يحصل عليها بواسطة الاسرار المقدّسة. فرسم الاسرار وأَتاح لكل انسان ان يولد بها للحياة الروحية، وينمو ويتغذى ويتقوى و يُشفى في حالة الضعف، او يسترجع هذه الحياة في حالة خسرانها. ووهب للأسرة سرًّا لتقديس الزواج. وبقي سرٌّ يعطي به السلطان لتوزيع هذه الاسرار المرسومة: وهذا السر هو سر الكهنوت

ومن ثمَّ وجب وجود الكاهن. فالكهنوت سر رهيب، فيه ينال الكاهن السلطة على تحويل الخبز والخمر إلى جسد ودم السيد المسيح، والسلطان على حلّ الخطايا، وعلى توزيع باقي الأسرار. ان الكاهن قد رُفع مقامه إلى درجة سامية في علاقاته مع الله، وجُعل راعياً للنفوس، وأُلقَيت عليه واجبات نحو الاسرة والهيئة الاجتماعية. فينجم عن ذلك ما له من الحقوق على الاكرام والمساعدة الأدبية والمادية ليُحسن القيام بوظيفته. ومن ثمَّ نرى الآن 1 منزلة الكاهن السامية التي تخوله الحق بان يقوم مقام السيد المسيح في توزيع الاسرار؛ 2 وظيفته في قيادة النفوس الى السماء، 3 واجباته نحو الأسرة والهيئة الاجتماعية

أولاً : منزلة الكاهن السامية

ان القديس بولس يقول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثس (4: 1): ((فليحسبنا الانسان كخدّام المسيح ووكلاء اسرار الله)). ان في هذه العبارة وصفاً موجزاً لوظيفة الكاهن : إنه وكيل اسرار الله. أجل لقد اقامَهُ الله وكيلاً على أثمن ما لديه، أي على انشاء او ابداع الاسرار وتوزيعها: على إقامة الذبيحة الالهية، أي على تحويل الخبز الي جسده والخمر الى دمه، وعلى توزيع التناول على المؤمنين، وعلى سلطان حلّ الخطايا، وعلى اعطاء النعمة في المعمودية، وتقويتها في الميرون، وعلى نعمة شفاء المرضى، وعلى تقديس عقد الزواج

وعليه، فإننا نرى منزلة الكاهن تفوق كل منزلة. فهي لا تشبَّه بوظيفة الأطباء والمحامين والقضاة، بل ولا بمنزلة الوزراء والملوك انفسهم. لان منزلة الملك زمنية، ومنزلة الكاهن سماوية روحية، والروح يُفضَّل على الجسد. بل انها تفوق مقاماً منزلة الملائكة أنفسهم. فلِمَن من الملائكة أُعطي الشرف بان يحوّل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه ؟ فقد اعطى السيد المسيح الرسل سلطة تفوق كل سلطة بقوله لهم : ((خذوا، كلوا، هذا هو جسدي ؛ اشربوا من هذا كلكم، هذا هو دمي؛ اصنعوا هذا لذكري)). وبهذا القول اعطى الرسل وخلفاءَهم أن يحوّلوا الخبز إلى جسده والخمر إلى دمه وبذلك يصنعون ما صنع المسيح. وقد فهم الرسل هذا الامر. فقال القديس بولس للمؤمنين : ((انكم كل مرة تأْكلون

هذا الخبز تُخبرون بموت الرب الى أَن يأتي ... ومن يأْكل هذا الخبز وهو على خلاف الاستحقاق يكون مجرماً إلى جسد المسيح... خبز البركة الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح، والكأس التي نشربها أليست هي شركة دم المسيح))؟

فالكاهن يجدد بهذه الذبيحة ذبيحة الصليب، وهي الذبيحة الوحيدة التي يريدها الله . لان الله في العهد القديم رفض الذبائح المرسومة التي كان سبق فقررها فقال : ((من منكم يغلق باب مذبحي مجَّانًا ؟ انه لا مسرّة لي بكم ولا أرضى بذبائحكم)). وطلب الله أن تقام عوضاً عنها الذبيحة الوحيدة التي يريدها بقوله : ((من مشرق الشمس إلى مغربها تقدّم و تُقتّر لي ذبيحة طاهرة لا عيب فيها، لان اسمي عظيم في الأمم)). فالكاهن أعطي سلطةً لان يأمر الله بهذه الكلمات فينحدر من اعلى السماوات ويوجد حيًّا على مذابحنا، بل إِنَّ الله جلّ جلاله يتكلم بفم الكاهن، وعندما يقول ((خذوا فكلوا هذا هو جسدي)) فالسيد المسيح ابن الله ينزل على الارض بصوت الكاهن : فيولد على الهيكل كما ولد في مغارة بيت لحم، ويترنّم الملائكة فوق هيكله كما ترنموا في بيت لحم بنشيد الميلاد . ((المجد لله في العلاء، وعلى الأرض السلام، وفي الناس المسرّة)). السيد المسيح يعيش في القربان عيشته الخفيّة في الناصرة، ويبشر على المذبح كما بشر في فلسطين، ويُجري في سر الافخارستيا العجائب التي كان يعملها في حياته العلنية : فيفتح أعين العميان لرؤية الحقيقة، و يُسمع الخرس المتصامّين عن سماع صوت الله، ويُرجع الحياة الى المائتين الفاقدين حياة النعمة، ويعزّي الحزانى، ويُنادي بالتطويبات التي نادى بها وهو على رابيةٍ في الجليل : طوبى للحزانى، طوبي للرحماء، طوبي للباكين؛ ويردّد على المذبح ما ردّده وهو على الصليب. فينفصل

الجسد من جهة والدم من جهة اخرى، بقوّة قوله ((اشربوا من هذا كلكم، هذا هو دمي)) وإِن لم يكن الانفصال بعد قيامته الاَّ رمزيًّا، لكون السيد المسيح لا يزال حيًّا. وهو يقول على الهيكل قد اتمت مشيئة أبي السماوي، كما قال ((قد تم)) وهو على الصليب

ففي هذه الذبيحة وحدها ننال النعم التي نحن بحاجة اليها. في هذه الذبيحة وحدها نرضي الله الرضى التام. فيها وحدها نسجد لله السجود اللائق، ويقبل منا فروض العبادة والعبودية الواجب علينا تقديمها لجلاله السامي. فيها وحدها نشكر الله الشكر الوافي بلسان السيد المسيح على كل ما نلنا من النعم. فيها وحدها ننال الصفح التام عن جميع خطايانا، لان خطايانا غير متناهية اذ هي اهانة موجهة إلى شخصٍ غير متناهٍ. ونحن لو كنا نطلب السماح باسمنا لَما كنَّا ننال الصفح التام لأننا خطأة. فقد أراد السيد المسيح أَن يوفي وفاءً كاملاً للعدل الالهي بموته على الصليب وتجديد ذبيحة الصليب في ذبيحة القداس. فهو الذي يطلب الصفح عن مآثمنا ويقول لأبيه الازلي : ((إغفر لهم لأنهم لا يدرون ماذا يعملون)). في هذه الذبيحة وحدها ننال النعم التي لا يمنحنا إِياها الله اذا طلبناها باسمنا الخاص. فعندما يرى الله ابنه الأزلي ((يشفع فينا بأنَّاتٍ لا توصف)) حينئذٍ يقول : ((هذا ابني الحبيب الذي به سررت))، ولا يمنع عنه شيئاً ممَّا يطلبه لأجل نفوسنا

فيا لها من منزلة رفيعة، منزلة الكاهن التي تجعل السيد المسيح ينزل الينا ويمنحنا هذه النعم كلها. فهل أخطأت القديسة تريزيا إِذ قالت ((لو رأيت ملاكاً وكاهناً لابتدأتُ بتحيَّة الكاهن اولاً))؟ ذلك ما قاله القديس فرنسيس السالسي عن كاهن قديس كان قد رقَّاه إلى

درجة الكهنوت، وقد رآه القديس يشير بيده إلى شخصٍ لا يراه وهو داخل إلى الكنيسة، كأنه يقول له تقدّم امامي في الدخول. فسأله الاسقف : ((مع من كنتَ تتكلّم وانت تشير بيدك وحدك))؟ فأجاب الكاهن : ((قد منحني الله نعمةً بأن أرى ملاكي الحارس. فقبل أَن أُرسَم كاهناً كان يدخل أمامي الى الكنيسة. ولَّما أصبحتُ كاهناً لم يُعد يقبل الاَّ أن يدخل ورائي)). فهذه المنزلة الرفيعة التي تجعل الكاهن يقوم مقام الله هي تجعل الكاهن أيضاً راعياً للنفوس

ثانياً : الكاهن والنفوس

ان للكاهن وظيفة سماوية لا أَرضية. فكما ان السيد المسيح أعطاه سلطاناً ليقوم مقامه في توزيع الأسرار، فقد أعطاه السلطان أيضاً ليقود النفوس الى السماء. وظيفته أن يعطيها باسم المسيح حياة النعمة، وان يغذيها من هذه الحياة، ويحافظ عليها إلى أن يقودها الى السماء . فمهمّته هي مُهمّة السيد المسيح نفسها. فهو الذي أمره كما أمر الرسل قائلاً: ((اذهبوا وعمدوا كل الأمم باسم الآب والابن والروح القدس، وها انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر)). هو الذي قال له في شخص الرسل: ((من سمع منكم فقد سمع مني، ومن احتقركم فقد احتقرني)). هو الـذي قال لـه بشخص الرسل ((كل ما حللتموه على الارض يكون محلولاً في السماوات وما ربطتموه على الارض يكون مربوطاً في السماوات)). واليه يتوجّه قول الرب : ((اني اطلب نفس الخاطئ منك))، ((انتم نور العالم، انتم ملح الأرض)). فقد قال

السيد المسيح ذلك للرسل ولخلفائهم، أي الأساقفة والكهنة. لأنه قال لهم : ((أنا معكم كلّ الأيام إلى منتهى الدهر)) و الرسل أنفسهم غير باقين إلى منتهى الدهر

ومن ثمّ، فوظيفة الكاهن أَن يقود النفوس إلى السماء. فهو يهتم بها من المهد الى اللحد.. عندما يولد الانسان في الحياة الطبيعية يكون ملطَّخاً بالخطيئة الأصلية ومحروماً حقوق ابناء الله. فيغسله الكاهن بحميم المعمودية، ويكون وسيلة أو أداةً تُنيله النعمة المبرّرة التي تجعل المسيحي ابناً لله وهيكلاً للروح القدس وحاصلاً على حق الميراث السماوي. تم يمنحه باسم الله موهبة الروح القدس، وهي سلطة لا تعطى في الكنيسة الغربية الاَّ للأساقفة، لكنها معطاة للكهنة الشرقيين الذين يحق لهم أن يمنحوا سر التثبيت بعد اعطاء سر المعمودية . وبذلك يملك الروح القدس على تلك النفس قبل أن يستولي عليها الشيطان. وإِذا فقد المسيحي في جهاده نعمة المعمودية فان للكاهن السلطة بان يُرجع اليه حياة النعمة، على شرط ان يكون في الخاطئ استعداد التوبة الصادقة مقروناً بقصد عدم الرجوع إلى الخطيئة. فعندما يمنح الكاهن الخاطئ الحلة باسم الثالوث الأقدس توافق على حُكمه محكمة السماوات، بدليل قول السيد : ((كل ما حللتموه على الارض يكون محلولاً في السماوات))

والكاهن يقدّم للمسيحي الغذاء الروحي. فبعد أن يصير المعمَّد ابناً لله بالتبني يغذّيه الله يجسده ودمه، ويهدّده بالموت إِن لم يتقدم لتناول هذا الغذاء: ((إِن لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فلا حياة لكم في أنفسكم)). فالكاهن مستعد ليقدّم هذا الغذاء الالهي كلّ

يوم في الذبيحة الالهية. وفي هذا الغذاء يقدّم الكاهن للنفس ما يفوق الجواهر واللآلئ، ومالَ العالم بأسره

الكاهن يشهد ميثاق الزواج وارتباط نفسين الواحدة بالأخرى. فيعطي المزوجين البركة التي لا بدَّ منها للحصول على النعمة المرافقة لهذا السر، ولنيل التوفيق من الله وبركة العلي التي هي أساس البيوت، والنعمة الضرورية لحسن القيام بواجبات الزواج المقدس، وعلى الخصوص حسن تربية البنين تربية مسيحية بخوف الله

من وظيفة الكاهن أن يواصل الاهتمام بالنفوس في حياتها الروحية : فيقوّي الضعيفة، ويردّ الضالة، ويُرشد التائهة، ويغذّي النفوس بكلام الله والارشاد، ويداويها ويعضدها إلى الساعة الاخيرة من حياتها، فيعطيها حينئذٍ الزاد الأخير، وينشّطها ويشجّعها بواسطة مسحة المرضى، إلى أن يسلمها إلى الملائكة الحرّاس الذين يصعدون بها إلى السماء، وهكذا لا يجد الكاهن راحة الاَّ متى ضمن للنفس ذهابها إلى مقرّها السماوي

تلك هي وظيفة الكاهن نحو النفوس. وعليه ايضاً واجبات نحو الهيئة العيلية والاجتماعية، لا بدّ الآن من بسطها

ثالثاً: مقام الكاهن في العيلة والهيئة الاجتماعية

هذا الكاهن الذي له غاية سماوية هو اكبر نافع للأسرة وللهيئة الاجتماعية. فهو اكبر عامل على سعادة الزوجين، وهو المساعد على وضع الوئام بينهما والمحبة المتبادلة والأمانة،

وهو المساعد على تربية الأولاد في المدارس، وهو معلّم الاحترام والطاعة والمحبة للوالدين . واذا حصل سوء تفاهم بين الطرفين، أي بين الأهل والأولاد، فهو العامل الأكبر على إزالة الخلاف: فيستعمل ما أمكنه من الوسائل الحبية ويذكّر الفريقين واجباتهما الدينية. واذا كانت وظيفته تضطرّه أحياناً إلى اتخاذ موقف كقاضي الأحوال الشخصية، فما ذلك الاَّ انتصاراً للعدل وصيانةً لحقوق المظلوم

وظيفة الكاهن تؤدّي اعظم منفعةٍ للهيئة الاجتماعية. فهو دائماً يسعى في تلقين النفوس احترام السلطة، ((اذ لا سلطان الاّ من الله))، كما قال الرسول. ومع احترامه للحكام يلتجئ اليهم ليلتمس منهم الرحمة والشفقة نحو الضعيف. ليس للكاهن بوجه عام زوجة ولا اولاد، لكنه أبو اليتيم وعاضد الارملة و مساعد للفقير، وهو القاضي اوقاته في زيارة المرضى مهما كانت امراضهم معدية، وهو صديق كل انسان مهمَل متروك قد خانه الدهر. ألا فلننظر إلى مشاريع المحبة فنرى الكاهن غالباً عند تأسيسها دائباً في معاضدتها. فهو القائل مع القديس بولس: ((من يضعف ولا احترق أنا))؟

ومع ذلك لا يجد الكاهن مكافأة في غالب الأوقات، الاَّ الانتقاد. فهو سمع انتقاداً ممن يجب عليهم أَن يعضدوه. وربما جعلوه موضوع تسليتهم وسخريتهم في المجتمعات. وكم مرّةٍ نسمع أناساً يحسدونه على معيشته، ولو جربوا أَن يعيشوا عيشته لَما قدروا زماناً على التشبّه به. فهو قد قضى ايام صباه في الدرس، وشبابه في مطالعة الفلسفة واللاهوت والكتاب المقدّس. وهو قد فطم نفسه عن ملاهي الحياة، وحرم نفسه لذّة العيشة العيلية كأنه على

هامش الهيئة الاجتماعية. فاذا قابل بعض الناس انفسهم بالكاهن وحسدوه، فما ذلك الاّ في ساعة أتراحهم، وهو لا عرف شيئاً من أفراحهم

واذا وجد المؤمنون في الكاهن موضوعاً للانتقاد، وهذا لا بدَّ منه ولا غرو فيه، فليذكروا انه بشر من عظم ولحم نظيرهم، وان كل بشر لا يخلو من الضعف، و اللّه وحده كامل . وقد يكون بين الكهنة من لا يقوم بواجباته، كما كان يهوذا في مصف الرسل، فمثل هذا يستحق الشفقة والصلاة لأجله، لكي يهديه اللّه. ذلك أننا أذا رأينا صورة المسيح في الوحل فلا نطأها بأرجلنا بل نبذل جهدنا لنرفعها ونجعلها بمأمنٍ من الاهانة

فالإيمان يعلمنا أن نحترم مقام الكاهن، وان لا ندينه، بل نترك الدينونة للّه، وان نساعده في مشاريعه الروحية والخيرية. فان الشعب هو يمينه وجناحه، وبدونه لا يقدر أن يعمل شيئاً من اعمال الخير، فتجب مساعدته في بناء الكنائس والمدارس و المياتم وسائر المشاريع. وتجب مساعدته في الاخويات والاندية وسائر المؤسسات الدينية. وتجب مساعدته في ما هو ضروري لمعيشته. لأنه اذا كان يقدم لنا الروحيات أَفليس من الواجب ان نساعده في الزمنيات بما هو لائق بمقامه؟

وفي الختام نرى من الواجب ان تفكر العائلات المسيحية انها لو كانت عواطف الايمان راسخة فيها لما فكَّرت قط في وضع العراقيل في سبيل دعوة اولادها إلى العيشة الا كليركية او الرهبانية. فما اكثر الأُسر المسيحية التي يشعر فيها احد الاولاد بالدعوة الكهنوتية او الرهبانية، ولا يجد من اهله مشجعاً على اتباع صوت اللّه وضميره، بل كثيراً ما يظن الأهل

أن من واجبهم ان يمنعوا اولادهم عن الكهنوت او ان يعاكسوهم جهد المستطاع بحجة امتحان دعوة اولادهم، ناسين أن دعوتهم تكون شرفاً للأولاد وبركة للأسرة وتعزية للوالدين أنفسهم الكاهن في سن الشيخوخة

وقصارى القول ان الكاهن يستحق الاكرام لسمو منزلته، ولان في وظيفته اعظم منفعة للأسرة وللهيئة الاجتماعية. فلنحترم مقامه ولنساعده في مشاريعه الروحية والزمنية، ليتمجد اسم الله وتنتشر مملكة السيد المسيح. آمين

مسحة المرضى

((هل فيكم مريض. فليستدعِ كهنة الكنيسة، وليصلّوا عليه ويمسحوه بالزيت باسم الرب. فان صلاة الايمان تخلّص المريض، والرب يُنهضه، وإن كان قد ارتكب خطايا تُغفر له)). (رسالة القديس يعقوب الرسول 5: 14)

قد شاءَت محبة الله ان تُساعدنا في حياتنا الروحية من المهد إلى اللحد، كما تساعدنا في حياتنا الجسدية وفي حاجاتنا المادّية، فترافقنا نِعم الاسرار السبعة: في الولادة، والنموّ، والغذاء، وفي المرض، وفي حياتنا الاجتماعية، حتى ساعة موتنا

لقد أسس السيد المسيح اسراراً سبعة لكل طورٍ من اطوار حياتنا. فبعد رُؤيتنا النور في الحياة المادّية، يقدّم لنا السيد المسيح سر المعمودية لنولد للحياة الروحية ونُصبح أبناء الله وورثَة للملكوت السماوي. وكما يحتاج الانسان في نموّه إلى التقوية، وهب لنا السيد المسيح في سر التثبيت وسيلةً للنمو الروحي والتقوية وارتقاء سُلّم الكمال. ولَّما كان الانسان في حاجة إلى التغذية ليعيش، فقد أعطانا السيد المسيح غذاء لنفسنا جسده ودمه الطاهرين لنحيا ولا نموت ونعيش عيشةً مسيحية، تابعين أفكاره، ومخلَّقين بأخلاقه، ومتممين إرادته، وممارسين فضائله، وليكون هذا الغذاء عربوناً للقيامة من الاموات و للحياة الابدية. ولَّما كان الإنسان يحتاج في مرضه إلى دواء ومعالجة، فقد شاءَت رحمة الله ان تضع سر التوبة لنُشفى

من امراضنا وتلتئم جراحنا، وترجع الينا الحياة الروحية اذا فقدناها، على شرط أن نرجع الى الله بتوبة صادقة وعزم ثابت على عدم الرجوع إلى الخطيئة

وقد شاءَت الحكمة الالهية أن تعطينا نعمة لحياتنا الاجتماعية، في سر الزواج : ليقدر الزوجان أن يقوما بواجباتهما الزوجية احدهما نحو الآخر ويُحسنا تربية أولادهما. شاء الرب ان يعطينا نعمة في سر الكهنوت، لكي ينال الكاهن السلطة على جسد المسيح ودمه، وعلى مغفرة الخطايا وتوزيع الأسرار، ولكي يحسن القيام بواجباته الكهنوتية الطالبة قداسة وتضحية عظيمة

وهذه النعمة ترافقنا حتى في ساعة الموت، بسر هو سر مسحة المرضى، وقد ذكر هذا السر القديس يعقوب اخو الرب في رسالته وله غايتان: الأولى شفاء المريض من مرضه، ان اراد الرب والثانية غفران خطاياه، وهما الموضوعان اللذان احاول تفسيرهما في هذا الاجتماع

اولاً : شفاء المريض الروحي غاية السر الاولى

ان الغاية الاولى من رسم سر مسحة المرضى انما هي شفاء المريض من امراضه الروحية . ومعنى ذلك أن المريض يجد في هذا السر ما يلزمه من النعم ليقوى على تحمل أوجاعه، اعداء خلاصة الذين يقوون عليه في ساعات المرض. وفي الواقع اننا اذا كنا ضعفاء عاجزون عن فعل الخير حتى في حالة الصحة، رسوم النعمة المبررة في نفسنا لأن سر المسحة انما هو من اسرار الأحياء، ومساعدات جديدة فعالة بولينا السر الحق على أن نلتمسها بد لنا من نعم خاصة تقوينا على الثبات في الخير حتى في مسحة المرضى هذا السر ما يلزمه من النعم

ليقوى على تحمل اوجاعه، ومكافحة أعداء خلاصه الذين يقوون عليه في ساعات المرض. وفي الواقع اننا اذا كنا ضعفاء عاجزون عن فعل الخير حتى في حالة الصحة، فكم بالحري يظهر عجزنا في حالة الضعف والمرض. ومن ثم لابد لنا من نعم خاصة تقوينا على الثبات في الخير حتى في حالة الضعف الطبيعي الناجم عن المرض. وهذه النعم تكون برسوخ النعمة المبررة في نفسنا لأن سر المسحة انما هو من أسرار الأحياء، وبمساعدات جديدة فعالة يولينا السر الحق على أن نلتمسها ونتالها من الله لنجاهد ضد أعداء الخلاص في حالة المرض

وفضلاً عن هذا الشفاء الروحي، او بالحري التقوية الروحية، يفعل سر المسحة في المريض مفعولاً آخر زمنيًّا قد يكون نهوض قابله من مرضه وإبلاله وشفاؤه، على ما جاء في نص الرسول : فان صلاة الايمان تخلص المريض والرب ينهضه. لذلك يطلب منا الواجب المسيحي في حالة المرض المخطر أن نستدعي الكاهن ليحصل المريض على نعمة سر مسحة المرضى، اي الشفاء المزدوج وقد رسم السيد المسيح هذا السر لشفاء النفس والجسد. فان مسحة المرضى تنفع المريض أكثر من دواء الطبيب، لان الله هو الشافي. بيد أننا، لضعف الإيمان في النفوس، نرى الكثيرين من المسيحيين يهتمون باستدعاء الطبيب، بل باستدعاء عدد من الأطباء، وباستعمال أدوية كثيرة يَحارُ الاهل في اعطائها للمريض، لأن الاطباء المختلفين وصفوا أدوية مختلفة، وما كان أحرى بالمريض المسيحي ان يستعمل الوسائل الروحية كما يستعمل الادوية الشافية!

فاذا لم يكن في المريض الوعيُ الكافي ليقوم بواجبه الديني ويستدعي الكاهن، فمن الواجب على ذويه أَن يقدّموا له هذه الخِدمة الروحية التي هي ايضاً مادّية . لان سر مسحة المرضى أُعطي ايضاً لشفاء المريض، كما قال القديس يعقوب : ((هل فيكم مريض فليستدعِ كهنة الكنيسة وليصلّوا عليه ويمسحوه بالزيت باسم الرب، فإنَّ صلاة الايمان تخلِّص المريض والرب يُنهضه)). وما اكثر الذين نالوا الشفاء من مرضهم الثقيل بعد المسحة، وما اكثر الذين يُقرّون بذلـك. وإِني اشهد امام الله أَني في حياتي الكهنوتية قد رأيت عدداً ليس بقليل ممن حار الأطباء في شفائهم فشفاهم الطبيب الالهي بواسطة هذه المسحة السرية

ان الكنيسة الشرقية تسمي هذا السر سر مسحة المرضى لا المسحة الأخيرة. والصلاة التي تقال في هذا السر هي الصلاة عينها التي تتلى على الزيت يوم خميس الأسرار. والصورة التي يتلوها الكاهن هي هذه : ((أيها الآب القدوس، يا طبيب النفوس والاجساد ... اِشفِ عبدك هذا من الأمراض المستحوذة عليه النفسانية والجسدية وأحيه بنعمة مسيحك حسب ما يرضيك، ليقدم الشكر بالأفعال الصالحة ...)) ومن ذلك يستَدلّ على أن وعيَ المريض ضروري، و اشتراكه في الصلاة جزيل النفع لهُ، وان الذين لا يعبأون بإِعطاء هذه المساعدة الروحية لمرضاهم في الاوان المناسب يحتقرون نعمة الله. والكفر بالنعمة إِثم جسيم

أجل، ان الذين لا يفكرون في استدعاء الكاهن الاَّ بعد أَن يقطعوا الأمل من شفاء مريضهم او بعد أَن يغيب عن وعيه، يجربون الله ويطلبون إِتمام ما لم يعدهم به. وانما يُطلَب منهم استدعاء الكاهن في حالة المرض الثقيل، لاشتراك المريض مع الكاهن في الصلاة بإيمان لكي

يشفى. وما أعظم دينونة الاهل الذين لا يساعدون مريضهم على القيام بهذا الواجب، فإنهم يعرّضونه لخطر الموت بدون أَن يستعدَّ لآخرته ويكونون في هذه الحالة من أَلدّ أعدائه

وكيف تكون محبتنا للقريب صادقة كاملة، اذا كنَّا نهتمّ بجسده وبمعالجة أمراضه فقط، ونترك نفسه تذهب إلى الأبدية غير مُستعدة لهذا السفر الشاسع، الذي تتوقّف عليه نتيجة اتعاب حياتنا كلها والسعادة الابدية؟

ففي مثل هذه الأحوال يُعرَف المسيحي الحقيقي ممن ليس له مبادئ في دينه. فالمسيحي الصادق هو المهتم بنفسه وبآخرته قبل الاهتمام بجسده وبهذه الحياة الزائلة، ويستعمل الدواء الروحي قبل الدواء الجسدي، ويطلب الشفاء إلى الله مصدر كل صحة قبل أَن يتعالج بالأدوية الكثيرة التي تداوي في الغالب عضواً من الجسد وقد تكون مُضرّةً بغيره. والفطنة تدعونا إلى تجريب دواء واحد وطبيب واحد، فإن لم نجد فيهما منفعةً، فحينئذٍ نلتجئ الى غيره من الاطباء. وما أَكثر المرضى الذين يضجون ويتذمّرون ويريدون الشفاء العاجل قبل ان ينال الدواء مفعوله، ويستعملون أدوية مختلفة لأطباء كثيرين ويذهبون ضحيّة تهوُّرِهم وقلّة صبرهم

ثانياً : غفران الخطايا غاية السر الثانية

ان الغاية الثانية من سر مسحة المرضى هي انه يغفر الخطايا لمن قد ارتكبها

اجل، إن غفران الخطايا له سرّ خاص يُدعى سر التوبة، الذي رسمه السيد المسيح. وشروط هذا الغفران أن نعترف اعترافاً تامًّا بكل الخطايا الثقيلة للكاهن المفوَّض لسماع الاعتراف، وان نندم ندامةً صادقة ونعِد بعدم الرجوع إلى الخطيئة، ونتَّخذ المقاصد الصالحة والوسائل الفعَّالة التي تساعدنا على عدم السقوط في الخطيئة. وهذا ما يجب على المريض فعله قبل كل شيء. وبديهي المرض لنحصل على حياة النعمة ونكون في حالة المحبة مع الله . بل يجب علينا أَن لا ننتظر المرَض لنحصل على حياة النعمة ونكون في حالة المحبة مع الله. بل يجب علينا أن نكون متأهّبين في كل ساعة للمثول أمام الله اذا فاجأَنا الموت، متَّبعين المثل الشائع: اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنَّك تموت غداً وبأَولى حجَّة يجب أن يكون ضميرنا صالحاً عندما نشعر بوطأة مرض ثقيل. فراحة الضمير تساعد على شفاء المريض ولاسيما اذا كانت الوساوس تساوره

انما قد يبقى علينا من بعد الاعتراف خطايا قد نسيناها، او خطايا ثقيلة اعترفنا بها ولم نكفِّر عنها تكفيراً تامًّا. لان كلَّ خطيئة تُبقي علينا دَينًا بل ديوناً. فان لم نوفِها في هذه الحياة بقي علينا وفاؤها في الاخرة في عذاب المطهر. لأننا لا نقدر ان تقف امام الله الكلي القداسة والفائق الطهارة الاَّ اذا كنا طاهري الذّيل أنقياء القلوب. فالله يرى نقصاً حتى في ملائكته. ومن منّا يقدر أن يمثُل أمام طهارة الله وبهائه بدون تنقية ضميره و استعداد دقيق لهذا المثول الرهيب ؟ ومن ثمَّ فان مسحة المرضى تُضيف إلى مفاعيل التوبة مفعولاً آخر، فتمحو الخطايا المنسية وتوفي الديون على قدر ما يسمح به استعدادنا، وتمحو الخطايا

الكثيرة الصغيرة التي لا نكاد نعبأ بها، وقد أهانت الله الكلي القداسة. وقد تغفر الخطايا المميتة نفسها، اذا تعذّر قبول سر التوبة وكان المريض نادماً عليها

وهنا يبقى لنا مجالٌ واسع لنفكّر في الوفاء عن خطايانا. فكثيرون يخطأون، واذا لم يشعروا بقصاص الله في الحال يظنون أن الله لا يعود يحاسبهم على خطاياهم وينسون أنه القائل : ليَ الانتقام وانا اجازي كلَّ أَحدٍ اعماله. ومن ثمَّ يقضون حياتهم ويذهبون الى الابدية، غير مكترثين لردّ المال الذي اغتصبوه من الفقير والأرملة او الذي سرقوه بغشٍّ وحيلة، غير مُبالين بالتعويض عن الوقت الذي أضاعوه من عمرهم الثمين والتعويض عن الشكوك التي سببوها لعددٍ وافرٍ من النفوس. وهم عائشون بخفَّة وطيش، كأَنْ لا آخرة هناك ولا حساب ولا موقف رهيب امام الديان العادل!

وما اكثر عدد الذين يسافرون إلى الأبدية، تاركين الأموال المحرَّمة لورثة لا يعرفون الجميل ولا يستعملونها للوفاء عن ذنوبهم ولفعل الخير، بل يتصرَّفون بها لإرضاء أهوائهم المنحرفة وللبذخ و المجد الباطل، وكان الاحرى أن يفكِّروا في التعويض، ويُعيدوا لقيصر ما هو لقيصر، ولله ما هو لله

ومن مفاعيل مسحة المرضى انها، ان لم تشفِ المريض فعلى الاقلّ تساعده على الصبر و احتمال الأوجاع بلا تذمُّر اقتداءً بالسيد المسيح الذي حمل صليبه ومات من اجل خطايانا، فاكتسب لنا النعمة بأن نحمل نحن ايضاً صليبنا مع صليبه، وهوّن هكذا علينا كل عذاب. لأن الله يعطي المريض القوَّة على احتمال الآلام، ويوليه اليقين بأن الأَولى به أن يتعذّب في

هذه الدنيا ولا يتعذّب في الآخرة، لأن الوقوع بين يدي الله الحيّ لأمر هائل، كما يقول الرسول

وما أعظم الفرق بين من يتألّم من اوجاعه وهو لا يفكر في الله بل ينطق بالكفر والتجديف، ومن يقدّم آلامه لله اشتراكاً بآلام المسيح ووفاءً عن خطاياه وخطايا العالم طالباً الرحمة والرُّضوان عنه وعن اولاده وذويه

وما أَجمل ما سمعته في حياتي الكهنوتية من بعض المشرفين على الموت الذين كانوا يردّدون أمامي هذه العبارات: ما أَحبّ مساكنك يا ربّ القوّات تشتاق وتميل نفسي إلى ديار الربّ... ويلي، لقد طالت غُربتي ... اني أُريد أَن انحلَّ لأَكون مع المسيح. وكان غيرهم يقولون: انا أُؤمن بك يا ربي، يا الله انت رجائي، يا الله اني احبك من كل قلبي، يا الله سامحني واصفح عن جميع خطاياي، يا الله اني في يديك استودع روحي. قد سمعت أحد المسيحيين من كبار العرب في شرق الأردن يجيب من يسأَله هل أنت خائف ؟ : ((هيهات انا ذاهب إلى عرس)). وسمعت آخرين يقولون: ((حُكْم ربّنا على الرأْس والعين، الذي يُريده ربنا هو المليح))

وما اجمل من يذهب الى الأبدية وفي قلبه الزاد الأخير، وفيه رجاءَ من قال : من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وانا فيه، وله الحياة الابدية، وانا أقيمه في اليوم الأخير، من آمن بي وان مات فقد انتقل من الموت إلى الحياة ...

هذه الميتة في الغالب مكافأة الحياة الصالحة. لأننا نموت في الغالب كما نعيش، ما عدا بعض حوادث شاذّة تقع للذين يندمون في آخرتهم على مثال اللص المصلوب عن يمين المسيح والهاتف في ساعاته الأخيرة : ((اُذكرني يا ربّ اذا أتيت في ملكوتك)). وقد اجابه السيد له المجد: ((اليوم تكون معي في الفردوس))

فلنَثِق كلنا بالله، صديقين كنا أم خطأة، ولنعلم بأَنه يكون فرح في السماء بخاطئٍ واحد يتوب اكثر من تسعة وتسعين صديقاً لم يتوبوا. ولا نُهمِل في أمراضنا الثقيلة أن نلجأَ إلى سر المرضى والسِّقام الذي يوحي الينا بمثل هذه العواطف ويُعدُّنا لميتة صالحة. ولنصلِّ لكي نحصل على الميتة الصالحة التي من ورائها السعادة الابدية. آمين

الزواج

لقد بسطنا في ما سبق تعليم الكنيسة في الأسرار الستة الأولى، أي المعمودية والميرون والتوبة والافخارستيا والكهنوت ومسحة المرضى. فلم يبقَ علينا الاَّ ان نتكلّم على سر الزواج. فهو سر من الأسرار المقدسة، وعليه معوِّلنا في الحياة الاجتماعية وحفظ الجنس البشري . فالمجمع التريدنتيني يفرض تعليم الشعب ما يتعلّق بأمور الزواج لأن جهلها تنجم عنه مضرّات روحية عديدة. فهو ركن من أركان الهيئة الاجتماعية. ومن الواجب أن نبحث فيه من أعلى المنابر في الكنائس، لان ما يقال عنه في المدارس لا يفي بالحاجة فضلاً عن أن سن الاولاد لا تسمح لهم بفهم الواجبات والشرائع التي تسوسه. وما اعتاده بعض المسيحيين من الاختلاء الروحي قبل الزواج حيث يتعلّمون واجباتهم لم يفشُ وينتشر بعد في هذه البلاد بحيثُ يغني عن إِنارة الشعب بتعليم الكنيسة في هذا الأمر الخطير

فنبحث اولاً في شرائع الزواج، وثانياً في واجبات الزواج ووجوب الاستعداد له. ونكتفي الآن بأَن نبحث في شرائع الزواج . فنرى اولاً تأسيس الزواج على عدم تعدّد الزوجات وعدم انحلاله؛ وثانياً انحطاط العالم القديم واخلاله بهذه الشريعة الالهية؛ وثالثاً ارجاع السيد المسيح الزواج الى حالته الأصلية؛ ورابعاً محافظة الكنيسة على شريعة السيد المسيح مدّة تسعة عشر قرناً

أولاً : تأسيس الزواج بصفتيه الجوهريتين: الوحدة والثبات

ان شريعة الزواج شريعة الهية، لا يقدر البشر أن يمسّوها مهما عظمت سلطتهم ومقدرتهم. فليس للإنسان أَن يقلب شريعة إِلهية. واذا حاول نقضها يكون مُجرماً او فاقد الشعور. فالزواج في اصله ترتيب الهي. وقد فهمت ذلك كل الأمم والشعوب، فحوّطته بمظاهر الدين في كل عصر. فالله وحده وضع سنّة الزواج. وفي خلقه العالم أخرج ست مرّات خلائق الوجود من العدَم فلبى الكون طلبه بحسب ما شاء. فخلق النور، والجلَد اي السماء، والنيّرات ومنها الشمس والقمر، ثم النبات، والحيوان. وقد رأى الله أن كل ما خلقه حسن

وبعد ستة أيام الخليقة، أو ست حلقات من أزمان الخليقة، لان كل يوم قد يوازي الوفاً من السنين، اراد الله ان يتمّم عمله بخلقه ملكاً على الخليقة المادّية، يجمع بين الروح والمادّة، فخلق الانسان، فجاءَ اجمل ما خلق الله واكمل خليقة ظهرت على الأرض، لأنها على صورته ومثاله، بالنفس والعقل والارادة

خلق الله الانسان في اليوم السابع. ولم يقل الكتاب في هذه المرّة : ((ورأى الله ذلك انه حسن)) لأنه لم يكمل عمله الاَّ بخلق المرأة. بل قال : ((ليس حسناً أن يكون الانسان وحده. فلنصنعنّ له امرأة بإِزائه لتكون عوناً له. فألقى الله على آدم سباتاً واستلَّ ضلعاً من

أضلاعه وصوّرها امرأة له. فلمَّا أَفاق آدم هتف فرحاً : هذه عظم من عظامي ولحم من لحمي هذه تدعى امرأة لأنها من امرئ أُخذت)). واضاف الكتاب المقدس : ((لذلك يترك الانسان اباه و امه ويلزم امرأته فيصيران جسداً واحداً)). فقد فهم آدم غاية وجود المرأة، لذلك بدأَ يفرح ويترنَّم. وفهم ما هو مركزها بالنسبة اليه، بكونها لم تُسحب من رأسه لتسود عليه، ولا من قدميه لتكون له خادمة، بل بالقرب من قلبه لتكون له شريكة في الحياة وعوناً له. وسمّاها امرأة لأنها من امرئٍ أُخذت

فقد خلق اللّه للرجل امرأَة واحدة، ولم يخلق له غير واحدة، كما انه لم يُعطِ المرأة غير زوج واحد، ليدل على نيته في وحدة الزوج أو الزوجة. ورأَى اللّه بذلك وسيلةً كافية لإِنماء الجنس البشري. فقال لهما، وبشخصهما لجميع البشر : ((انموا واكثروا واملأُوا الأرض وأخضعوها وتسلّطوا عليها)). ولو كان اللّه جلَّ جلاله يبغي تعدّد الزوجات لكان خلق لآدم غير زوجة واحدة، ولا سيما وقد كانت البشرية في حاجة اعظم إلى النموّ والازدياد. ولكنَّه جعلهما شريكين متعاونين ليكون كل واحد منهما عوناً للآخر. وقد فهم آدم ان حوّاء أُعطيت له على الدوام لا ليتركها ويطلقها. فقد رآها عَظماً من عِظامه ولحماً من لحمه، ومن الواجب أن لا يتخلَّى عنها كما انه لا يتخلى عن عظمه ولحمه. فسنَّة الزواج تقتضي الارتباط الدائم وعدم الانحلال، ومصلحة الزوجين تقتضي الحب المتبادل الدائم والاتحاد الذي لا تُفصَم عُراه. فلا يبغض الانسان لحمه وعظمه ومصلحة الأولاد تطلب الزواج الدائم لئلاَّ يُحرم الولد تربية أبيه وأمه. فعلى أساس وحدة الزواج أو الزوجة، وعلى أساس عدم

انحلال الوثاق الزوجي خلق الله آدم وحوّاء، وازوجهما، وباركهما، وأمرهما بالنموّ والتكاثر الى أن يملأَ نسلهما الأرض

ثانياً : اخلال العالم القديم بالشريعة الالهية

الاَّ ان الاهواء البشرية، بعد الخطيئة الأصليّة، قد هدمت هذا الصرح الالهي. فان الله جلّ جلاله قد زيّن آدم وحواء، منذ خلقهما، بالنعم الروحية والزمنية، وجعل الانسان ملِكاً على الارض. وكان مُعدًّا لان يقضي اياماً هنيئة سلامية على الارض، وتولد له ذريّة، وبعد حياة بلا عيب تدوم مدةً لا يعلمها الاَّ الله، ينتقل مع ذريته إلى السماء، حيث يحلّون محل الملائكة الذين سقطوا واصبحوا شياطين. لكن الخطيئة دخلت، ومع الخطيئة التشويش وعدم النظام والموت

فعاش العالم مدة قرون عديدة تابعاً أهواءَه ومخلاًّ بوحدة الزواج وبقداسته. ولم يكن تمدّنه الموهوم الاَّ واسطة لانحطاط أخلاقه. فأثينا المتمدنة وروما قد غاصتا في الأوحال. فالزوج أصبح مستبدًّا ما دام يتقلّب بتقلّب اهوائه، ويستخدم المرأة لشهواته، ويتخلَّص منها متى شاءَت اهواؤه، ويضحّي بولده على مذابح طمعه، ويربط عقد الزواج ويجله لأوهى سبب، بل لأسباب شهوانية، إِن لم تكن مُجرمة. ففي عصر أغسطس الزاهر كانت النساء الرومانيات يعدُدنَ عقود الزواج على عدد الأشهر. ولم يكن القضاة انفسهم بأعفَّ من باقي الشعب. واذا سألت : أين كان الفلاسفة، ولِمَ لم يردعوهم عن الفساد ويروهم طريق الرشد،

فالجواب أن الفلاسفة لم يمتازوا بسلوكهم عن باقي العامة. فان كتابات افلاطون في هذا الموضوع كلها مخازٍ. وقد كانت الاديان الوثنية لا تشعر بهذا الانحطاط في الأخلاق حتى أَلَّهوا الرذيلة واتخذوا لهم آلهة تشجعهم على الغيرة والحسد. وشعراؤهم كهوميرس اليونان وأوفيد الرومان يتصبَّون ويتغزّلون بهذه الرجاسة. فقد فسد العالم القديم لفساد الأسرة، وباد لإبادة الاخلاق، وفاق البشر البهائم في هذا الانحطاط

ومما يستدعي العجب أن الشعب الاسرائيلي نفسه تعدَّى حدود شريعة الزواج. ولم يقدر موسى النبي نفسه أن يردَّهم لِما رآهم عليه من انحطاط الآداب وسخافة العقول وغلاظة القلوب. بل تغاضى عن هذا الأمر، على ما قال السيد المسيح: ((ان موسى من اجل قساوة قلوبكم أَذن لكم أن تطلِّقوا نساءكم)). واذا بحثنا عن سبب منازعات كثيرة يذكرها الكتاب المقدس لحظنا انَّ ذلك لم ينجم الاَّ عن تعدّد الزوجات، كما جرى لسارة مع هاجر ولأولاد يعقوب واولاد داود النبي وغيرهم، مما كان ينشأ عنه البغض والحسد والقتل

واذا اردنا امثالاً في مضرّات انحلال الزواج وتعدّد الزوجات فما لنا الاَّ ان ننظر بين ظهرانينا ونشاهد بأُم العين غياب الحبّ الحقيقي بين الرجل والمرأَة، و المخاصمات، والطلاق المتواتر، وتنقُّل المرأَة من رجل إلى آخر، وعدم متابعة تربية البنين، بل عدم الحب المتبادل بين الأهل والبنين. والرجل المتبصر في الحوادث يرى كثرة الجرائم التي يولّدها الطلاق بين المرأَة وزوجها والاولاد و آبائهم. تلك الحالة التعسة قد اصبحت النفوس الأبيَّة

تمجّها وترغب في عدم الطلاق وعدم تعدّد الزوجات. وهذا ما أصبح يمارسه بعض الأُسَر الشريفة واصبحت الحكومة ترغب في سنِّه بطريقة شرعيَّة

ثالثاً : السيد المسيح ارجع سر الزواج الى حالته الأصلية

فقد كان منتظراً من المشترع الجديد ومن مخلص البشر أن يرفع الانسانية المنحطَّة ويُرجع الزواج الى شرفه واصله. وهذا ما عمله السيد المسيح اذ قدَّس شريعة الزواج بحضوره عرس قانا الجليل، ووضع شريعة وحدة الزوجة وعدم انحلال الوثاق الزوجي الاَّ بالموت. وقد اوضح السيد المسيح ذلك لما سأَله الفرّيسيون ليجرّبوه قائلين: هل يحق للإنسان ان يطلِّق زوجته لأجل كل علَّة ؟ فأَجابهم قائلاً : أَما قرأتم أن الذي خلق الانسان في البدء ذكراً وانثى خلقهم وقال: لذلك يترك الرجل اباه وامه ويلزم امرأَته فيصيران كلاهما جسداً واحداً. فليسا هما اثنين بعد ولكنها جسد واحد. وما جمعه الله لا يفرّقه انسان . فقالوا له: فلماذا أوصى موسى أن تُعطى كتاب طلاق وتُخلّى؟ فقال لهم ان موسى لأجل قساوة قلوبكم أَذِن لكم ان تطلِّقوا نساءكم. ولم يكن في البدء هكذا. وانا اقول لكم كل من طلَّق امرأَته وتزوَّج اخرى فقد زنى عليها. ومن تزوَّج مطلَّقةً فقد زنى. وان طلَّقت امرأَة بعلها وتزوَّجت آخر فقد زنت ... ولمَّا استصعب تلاميذه هذه الشريعة هل رجع عن كلامه؟ لا بل قال لهم ((من استطاع أن يحتمل فليحتمل)). فالشريعة واضحة: زوج واحد لزوجة واحدة، يعقدان

الزواج بأمر الله لا بأمر انسان. فالله هو الحكَم في الزواج. والكنيسة التي تمثِّل الله في الزواج هي الحكم باسم الله. وليس للإنسان ان يفصل ما جمعه الله . فلو اجتمعت حكومات العالم كلها واعلنت الزواج المدني فليس لها حق بأن تشترع مثل هذه الشريعة المخالفة لشريعة الله. وكل شريعة بشرية تمس الشريعة الالهية تكون محرّمة. والزواج المدني المخالف شريعة الله لا يستحق اسم زواج. فليس للحكومة أن تفصل وتحكم الاَّ في الامور الزمنيَّة؛ لكن عقد الزواج لا يجوز لأي انسان ان يبدّله

واذا أردنا تفسيراً لشريعة السيد المسيح، فلنا أن نسمع القديس بولس يقول : ((امَّا المتزوّجون فأُوصيهم، لا أنا بل الرب، بأن لا تفارق المرأة رجلها. وان فارقته فلتبقَ غير متزوّجة او فلتصالح رجلها ... ان المرأَة التي تحت رجل هي مرتبطة برجلها ما دام حيًّا. فإِن مات الرجل برئت من ناموس الرجل وصارت محلولة من قيدها. ولا إِباحة اكثر من ذلك. فالقديس بولس يسلِّم بأن المرأَة قد يكون لها اسباب شرعية للفراق ولكنه لا يسمح لها ابداً بالزواج ما دام الزوج حيًّا. فالموت وحده يحلّ قيد الزواج. إِذن الفراق مسموح به في بعض الأحوال، أَمَّا الطلاق المؤدي إلى زواج آخر فتمنعه شريعة المسيح. واذا سمحت به الشرائع البشرية، فشريعة الانجيل تبقى. لان السماء والأرض تزولان وكلام السيد المسيح لا يزول

ذلك ما يقتضيه العقل البشري. ولا حاجة أن نبسط حالة البلاد السامحة حكوماتها بالطلاق .فلا ودَّ حقيقيّ بين الزوجين القابلين الطلاق، ولا مساعدة متواصلة، ولا تربية

للبنين؛ بل اهواء بشرية متقلبة، ومنازعات ومصائب لا تعداد لها. فقد وضع السيد المسيح بقوّته الالهية هذه الشريعة، وهو لا يخشى مقاومة الأهواء البشرية، لان له الحكم النهائي. وسلّم هذه الشريعة إلى كنيسته لتدافع عنها فهي تلغي احياناً الزواج بعد بحث عميق في محكمة ابتدائية، ثم في محكمة استئناف، ليظهر فيه جليًّا ان العقد فاسد من أصله وان شروط الزواج الجوهرية غير موجودة من الأصل. وحينئذٍ تعلن ان الزواج لاغٍ لكنها لا تعدّ نفسها أن لها السلطة بفسخ شريعة السد المسيح أو بالسماح بالطلاق لأن الطلاق لا وجود له في الكنيسة الكاثوليكية الاَّ بمعنى الفراق

رابعاً : محافظة الكنيسة على شريعة السيد المسيح

واذا تصفحنا التاريخ، رأينا أن الكنيسة قد حافظت على شريعة السيد المسيح ونشرتها في العالم، وختمت هذه الشريعة مراراً بدم اساقفتها و كهنتها وأولادها. وقد بدأت الكنيسة المقدسة تمارس واجباتها بعد صعود السيد المسيح إلى السماء وتعرفون ما كانت حالة العالم آنئذٍ. تعرفون ما كانت عليه مدينة أثينا عاصمة اليونان من الطيش، وكورنثوس من الدنس، وكيف كانت رومة فاتحة معابدها لكل الآلهة، وقصورها لكل المخازي، ومسارحها لكل العثارات. فبفضل الكنيسة اصبح الزواج مقدّساً، والمضجع الزوجي طاهراً . ولم تقوَ على الكنيسة قوّة القياصرة، ولا سخرية الشعراء، ولا حذلقة الفلاسفة

وبعد أن أوجبت الكنيسة احترام الزوج في المملكة الرومانية، أخذت على عاتقها تربية البرابرة الذين لم يعرفوا اللاهواء حدًّا. هذه أوربا المتمدنة. فان ما بقي فيها من الأُسر

الشريفة المحافظة على محبة الوالدين والاعتناء بالبنين يرجع الفضل فيه إلى الكنيسة. أما الــذين يبتعدون هناك عن شرائعها فيرجعون إلى حالة الوثنيين التعسة. طالعوا تاريخ الكنيسة في الأعصر المتوسطة، تروها تقفُ حاجزاً منيعاً في وجه المستبدّين التابعين لأهوائهم. فهي لا تحابي ولا تُدالس، بل تجعلهم يقفون عند حدودهم. فالباباوات قاوموا الملوك لوتاريوس الثاني وهنريكوس الرابع في المانيا، وفيليب أوغست في فرنسا، و هنريـكوس الثامن في انكلترا. و ذلك ما فعله الأساقفة ايضاً، كالقديس طراسيوس في القسطنطينية مع قسطنطين الرابع، مما يدل على محافظة الكنيسة الشرقية على سر الزواج في القرن الثامن للمسيح أي قبل الانفصال بنحو مائتي سنة. هوذا الملوك يهدّدون الكنيسة بفصل ممالك كبيرة عن جسمها، كهنريكوس الثامن المهدّد بفصل انكلترا عن الكنيسة إن لم يُسمح له بزواج حنّة دي بُولين في حين أن كاترين داراغون زوجته باقية في قيد الحياة، وفيليب دي هسّ وأَلبر دي برمبور المهددين بفصل ألمانيا إِن لم يسمح لهما بالطلاق، و نابليون المُزبد المُرعد وهو في أَوج صولته طالباً الطلاق، والكنيسة تجيب الجميع: لا يجوز . السماء والارض تزولان وكلام المعلم الالهي لا يزول. شريعة الزواج شريعة إلهية ولا يجوز للبشر أن يحلوا منها

وفي هذه البلاد، انظروا ما للمسيحيين من الفضل في المحافظة على سر الزواج. فبينما كان المسيحيون يرون حولهم شريعة الزواج مدوسة، والطلاق سهلاً، والحكومة تُبيحه، ولا قوّة زمنية تردعهم عنه، قد حافظ آباؤنا واجدادنا على شريعة السيد المسيح، وضبطوا أهواءَهم وضحّوا بشهواتهم، لعلمهم بأن الديان قريب، وان الله أَحقّ من الناس بأَن يطاع

وإِذا ادّعى البعض أن شريعة الزواج قاسية في بعض الاحوال، بل ظالمة، فليعلموا أن هذه الشريعة شريعة رحمة للزوجين وللأولاد، وشريعة تمدّن وسلام، وان المظلومين هم في غالب الاوقات مظلومون بخطيئتهم الأصلية لانهم يُقبلون على الزواج غالباً لاتباع الاهواء لا بتحكيم العقل، لأسباب مادية وغايات مالية، وعن خفةٍ وطيش، فهم الجانون غالباً على انفسهم. انما اذا بقي عدد قليل ممن لا لوم عليهم في زواجهم، فذاك نادر وهو بسماح الرب. وهم يعانون الأمرين من هذه الشريعة، ولا غروَ، فهي كسائر الشرائع للمنفعة العامة، وكل شريعة لها فوائدها وقد ينجم عنها بعض المضرات. فاذا رأينا الشمس أضرّت ببعض الأدمغة بحدّة اشعتها إِذ لم يتخذوا التحوّطات اللازمة إِبّان الحرّ الشديد، فليس الذنب على الشمس. وإِذا رأينا السيارات والقُطُر والطيارات تذهب ببعض ضحايا، سواء كان بذنب سائقيها ام عن غير ذنب منهم، فهذا لا يمنع استعمال هذه الاختراعات النافعة للجمهور . و قيسوا على ذلك باقي الشرائع التي لا بدَّ لها من بعض الضحايا

فلنشكر السيد المسيح الذي ارجع شريعة الزواج الالهية إلى اصلها الأوَّل. ولنشكره لأن هذه الشريعة قد حفظت عموماً الحبّ المتبادل بين الزوجين، و كفلت تربية البنين، وعلَّمت الزوجين الأمانة والتضحية، وساعدتهما على الحصول على السعادة النسبيَّة في هذه الدنيا وهي تُعِدّ لمن يحافظ عليها السعادة الأَبدية في الآخرة . آمين

دعوة الزواج

ان الله تعالى خلق الانسان ودعاه الى اتباع حالة الزواج. وبعد ما نمى الجنس البشري و كثر اتى السيد المسيح على الأرض وفتح باباً للطالبين الكمال بممارسة البتولية اذا ارادوا. وهذه البتولية تتفرّع الى فرعين: فرع يمارَس بدخول الجمعيات الرهبانية، وفرع يقوم بممارسة البتولية في العالم والامتناع عن الزواج حبًّا للكمال

فكل انسان له دعوة من الله وهذه الدعوة على ثلاثة أنواع: امَّا الإكليريكية او الرهبانية، وامَّا العيشة البتولية في العالم، واما العيشة الزواجية. ومعلوم انه اذا لم يتبع الانسان الدعوة التي دعاه الله اليها يصعب عليه امر خلاصه الأَبدي. وها نحن نتكلم عن هذه الدعوات الثلاث:

أولاً: الدعوة الرهبانية

قبل ان نتكلم على هذه الدعوة، نذكر معها ممارسة البتولية في الدعوة إلى الكهنوت. فإِن الزواج، وان لم يكن محظوراً على الكهنة في الكنيسة الشّرقية قبل الدخول في سلك الكهنوت، وذلك لأسباب خطيرة قد سلَّم بها مجمع نيقية الأَول، إِلاَّ ان الكنيسة تؤثر عليه البتولية في الاكليرس لأَسباب اعظم وجاهة. منها ان الكاهن الذي يقدّم كل يوم الذبيحة الالهية ويحمل بديه جسد الرب الكلي الطهارة يجب ان يكون مترفّعاً عن الأَرضيَّات وعن

الشهوات اللَّحمية قدر المستطاع، والبتوليَّة اكثر لباقةً لذلك. ثم أن الكاهن هو رجل الشعب، المطلوبة منه زيارة المرضى والموجوعين. فإذا كان له امرأَة واولاد، فأسرته تخشى عليه من العدوى ولا تشجِّعه على ذلك. فضلاً عن أن الكاهن هو موضوع ثقة الشعب ولاسيَّما في الاعترافات و كثيرون يخشون تسليم الدراهم الى من لهم شريكة في الحياة. ولا يغرب عن بال احد أن حياة الزواج تلهي الرجل بزوجته واولاده، فيصعب عليه والحالة هذه، ان يُضحِّي بنفسه لأَجل مصلحة الجمهور

وأمَّا الدعوة الرهبانية فهي نداء لانتحال الكمال الروحي بممارسة النذور الرهبانية واتباع العيشة الجمهورية المشتركة. فهي دعوة النفوس الشريفة الساعية وراء الكمال، الخائفة من اخطار العالم وفساده ومن التعرّض للوقوع في حبائل الخطيئة، الدائبة لتزيد أمر خلاصها الأبدي ضمانة

هذه النفوس تهجر العالم وملذات العيشة بين الاهل والاصحاب، وتضحي بخيرات الدنيا وأفراحها وجاهها، وتسعى للحصول على الكمال بممارسة ثلاثة نذور: نذر العفة الذي به يعد الانسان الله أن يمتنع عن الزواج طوعاً ويمارس الطهارة ويقف نفسه على خدمة الله وتمجيده، فيعيش عيشة الملائكة، ويتخذ لذلك كل الوسائل الروحية، ويبتعد عن الأخطار وعن أسباب الخطيئة، ويتسلح بالصلاة والتأمل والشغل والتضحية وممارسة الأسرار المقدسة، ونذر الطاعة، وفيه يعد الراهب رئيسه بأَن يطيعه ويطيع قوانين الرهبانية كبيرة كانت ام صغيرة، ويقضي اوقاته في خدمة الجمهور واجراء كل ما تطلبه الطاعة منه؛ ونذر

الفقر، وفيه يتجرّد الراهب من حب المال، ولا يقتني لنفسه شيئاً من ثمرة اتعابه، بل يعيد كل شيء الى مصلحة رهبانيته، مع الأمل بأَن ديره يهتمّ بكل حاجات معيشته ويكفل له مستقبله والعناية به في مرضه وعجزه

فدعوة الكهنوت والدعوة الرهبانية هي لفئة صغيرة من الناس. وهي دعوة خاصة من الله، تقتضي تضحية وكمالاً وإِلهاماً منه تعالى. وتساعد على معرفة هذه الدعوة الخاصة إِرشادات الاب الروحي

ثانياً : حالة التبتل في العالم

هذه الحالة تقوم بحفظ العفة لأسبابٍ قد تكون لنيل أجر البتولية، والتعالي عن الدنيويات، والعيشة في عالم سماوي يتجرّد فيه المرء عن ملذّات الدنيا الدنيئة، وحفظ العقل والقلب طاهرَين، و مناجاة الله في الصلوات بأقل ما يمكن من التجارب. وكثيراً ما تكون هذه الدعوة لرجال المطالعة والعلم، ليتفرّغوا لشغلهم العقلي، ويُمعنوا في ابحاثهم، أو ليهتمّوا بالمشاريع الخيرية. وقد تكون ايضاً عن ضرورة تمنع الانسان عن الزواج وتلزمه بأَن يضحي بنفسه في خدمة والدَين عاجزَين او أَخواتٍ يتامى في العيلة، اذ يكون زواجه في هذه الأحوال تعساً لهم ويفقدهم ما هو ضروري لحياتهم، فيما يكون لتبتّله أجرٌ عظيم، لِما في عمله من التضحية بملذاته لخدمة ذويه ومنفعتهم. وفي الوقت نفسه يجد هذا المتبتّل سهولةً أعظم لمزاولة الحياة الروحية وبلوغ درجات الكمال. ان هذه العيشة الطاهرة في حالة التبتّل قد أوجدتها الديانة المسيحية ولا نجدها خارجاً عنها. لان الكنيسة تحفظ البتولية بالصلاة

وممارسة الأسرار ولا سيما الافخارستيا، و بالابتعاد عن اسباب الخطيئة. هؤلاء هم الذين اشار اليهم السيد المسيح بقوله : ((إنهم خَصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات)) وهي فئة صغيرة ايضاً دعاها اللّه، ولا يقدر على هذه العيشة الاَّ بعض نفوس ممتازة ومختارة

والفريق الثالث من الناس، وهو الأكبر، دُعِي إلى الزواج، ليتساعد الزوجان على مصاعب الحياة، ويحفظ النسل، ويداويا شهوتهما الطبيعية، ويربيا بنين صالحين يستحقون فيما بعد الارث السماوي. هذا الفريق هو الأكثرية الساحقة بين البشر وكل من لا يريد ان يحفظ البتولية يجب عليه أن يتزوّج لكي يحصل على خلاص نفسه، ويجب أن يبتعد عن الخطيئة واسبابها. فشريعة الزواج شريعة عامّة، وما سواها هو دعوة خاصة لأَفراد معدودين يدعوهم اللّه ويحتاجون إلى نعم خاصة أيضاً. وقد وضع اللّه دافعاً كبيراً إلى الزواج اذ جعل فيـه لذة اقوى من لذة الانسان في تناول الطعام حتى ان الانسان، كما يشعر بشهية للأكل للمحافظة على حياته، يشعر ايضاً برغبة أعظم في الزواج للمحافظة على الجنس البشري

لكن اللّه لا يسمح بلذّة الزواج الاَّ لمن أراد أن يتحمل متاعبه وهمومه. فهي سنّة من اللّه أن يُقبل الانسان على الاقتران بامرأة ليحصل على مساعدتها ويتمتع بالأولاد فلذة كبده وثمرة احشائه و موضوع عزائه. فيجب عليه من ثمَّ أن يتحمّل متاعب الزواج ومسؤوليته، وان يقوم بأوَد أهل بيته ويحسن تربية البنين. وهذه الحياة الزوجية، بالرغم من همومها ومتاعبها، هي ضامنة للسعادة النسبية الممكنة في هذه الدنيا، لأنها مسببة لراحة الضمير ولها افراح عيلية تفوق غيرها من الأفراح ولا سيما المحرّمة

على أن عصرنا هذا، عصر الانحطاط في الأَخلاق والفساد، اصبح فيه فئة شاردة عن سنّة الزواج، تسعى وراء الملذّة اللحمية وتهرب من الهمّ والتعب؛ فئة تنظر إلى ملذّات هذه الدنيا وتنسى الآخرة، تتوهم السعادة في إِرضاء الأهواء السافلة وهي تقاوم الشريعة الالهية والشريعة الطبيعية. فالله الذي حرّم الزنى له يوم يحاسب فيه الزاني عن خطيئته. والطبيعة تقتصّ ايضاً ممن لم يتبع شريعتها، بوخز الضمير، ومعاكسات الدهر، وضياع الوقت والمال، والتعرّض للإهمال في الكـبَر، وبالفقر ايضاً، لأن المثل السائر يقول: بشّر القاتل بالقتل والزاني بالفقر

وهـذه الفئة الشاردة تُقسم ايضاً إلى قسمين: قسم يجزم جزماً باتًّا بعدم الزواج وهو لا ينوي حفظ البتولية؛ وقسم يتأخر عن الزواج، وهو أيضاً عائش عيشةً لا ترضي الله ولا الضمير. فالقسم الاوّل قد اقام نفسه عدوًّا لله وللطبيعة، وهو يعيش بعيدًا عن الله، ويتعرّض لتوبيخ الضمير المؤلم. وإِذا سكت هذا الضمير فهي علامة تدل على تخلّي الله عنه. فهؤلاء المتقاعسون رجال لا يعرفون للتضحية معنى، يريدون أن يقللوا من التعب جهد طاقتهم وأن يأخذوا من الملذات ما أمكنهم، فيحرمون انفسهم من ملذّات الحياة الحقيقية، ويضيعون اوقات شبابهم، ويخسرون أنقى دمهم وأموالهم، ويفقدون هيبتهم وكرامتهم بين الناس. لان الرجل الكبير غير المتزوج ليس له هيبة المتزوج. وإِن كان غناه يغطّي على قلّة قدره في الخارج، فهو فاقد الثقة في قلوب الناس الذين تبقى لهم الحرّية أن يفكّروا فيه في داخلهم ما شاءُوا. و كثيرًا ما يكون هذا الانسان معرَّضاً لأخطار الموت الفجائي، وفي الغالب يموت الانسان كما عاش. فإِن كانت هذه حياته فما أتعس ما تكون آخرته

امَّا الفريق الآخر المتأخر في زواجه وهو في الملاهي غير محافظ على البتولية، فكل يوم يتأخر فيه عن الزواج يُعَدّ ضائعاً من حياته ومضرًّا بمستقبله. فهو يخسر وقتاً كان أحق الناس بأَن يرى فيه بنيه شباناً يتمتع بهم قبل أن يهرم، ويربّيهم بمثله وهو في كمال قواه . وهو يخسر دراهم ينفقها على ملاهيه واصحابه، وكان الأَولى أن تُنفق عـلى زوجته واولاده وبيته. وهو يخسر أَنقى دمـه، ويتظاهر بحبه لمن يخونه، وربما تولّد فيه العشرة السيِّئة امراضاً تُفسد دمه، فيـنقل العدوى إلى شريكة في الحياة بريئة. واذا حصل على نسلٍ فهو نسل سقيم مبتلى بالعاهات ميّال إلى الرذيلة. فكم من الآباء استحقوا اللعنة بدل الشكر والبركة من اولادهم السقماء الملوّثين بالأمراض المخزية

ولا فائدة في الغالب من تأخير الزواج لمن له مقدرة على فتح البيوت، سوى التأخير في الصحة والقوّة والعافية. وعندما يُقدم مثل هذا المتقاعس على الزواج لا يقدّم لشريكة حياته الاَّ قلباً قد نخره الفساد وجسماً بالياً تأصلت فيه العاهات. واذا اختار فتاة صغيرة في السن تكون هذه الفتاة معدّة لأن تصبح ممرِّضة، وأن تسمع سُعال صدرٍ بالٍ، فتدفن صباها مع رجل شَبِعَ من الحياة؛ وتكون معرّضة لان تضحي أرملةً في ريعان صباها

واذا سألت بعض الشبان ما هو سبب تأخرهم عن الزواج قدّموا لك اعذاراً لا عدد لها، منها ما فيه شبه حقيقة ومنها ما هو واهٍ. فيذكرون لك عدم وجود بنات رصينات قادرات على إِدارة البيوت. ويحدثونك عن خفتهن وطيشهن وعدم تربيتهن، و مَيْلهن إلى الرقص

الخلاعي واللعب، وتطلبهن للنفقات الباهظة. أجل، ان في هذه الأَعذار ما يستحق التروّي قبل الإِقدام على الزواج. لكن في العالمِ الخير والشر، الفتيات الطائشات والبنات الرصينات، والعيال الشريفة التي لم تزل، والحمد لله، تحافظ على إِرضاء الله وعلى سمعتها الحسنة. فكل من جَدَّ وجد. والعالم لا يخلو من الصَّلاح، ومن طلب إلى الله أَن يلهمه يساعده الله على نيل مبتغاه. وعلى كلٍّ يجب ان يعيش الشاب كغيره بخوف الله، ولا يعرّض نفسه للموت الفجائي وخسارة الدنيا والآخرة

وهنا يجب أن نوّجه اللوم العنيف إلى الوالدين، ولا سيما إلى الأمّهات اللواتي يعطين أسباباً لشكاوي الشبان، ولا يعلّمن بناتهن مع اللغات والعلوم، العلم البيتي، الذي فيه الاقتصاد في اللبس، وخياطة الثياب، والتدبير المنزلي، وسائر علوم الاقتصاد

يجب أن نوّجه اللوم الى الامهات اللواتي لا يضعن الفضيلة اساساً للتربية، فلا يعلّمن بناتهنّ الحشمة والادب والعفة والذوق السليم في اللبس. فعلى هؤلاء الأمهات أن لا يتوهَّمن ان ظهور بناتهنَّ في المراقص والملاهي يجلب لهنّ الزوج. بل ليَعلمنَ بخلاف ذلك أن زهرة البنفسج التي تبعث رائحتها العطرة وتخفي نفسها لا تخفى على يد من يرغب في قطفها. فهو يعرف أن يميزها وهي مختفية ويقطفها عند الاوان

نوجّه اللوم العنيف إلى الوالدَين اللذين لم يعُد لهما سلطة على اولادهما، وقد عوَّداهم الحرّية المفرطة والعشرة المريبة وحضور كل انواع الملاهي، والسهر والبذخ، وربما كانت هذه

التربية السيئة صادرة عن سلوك الوالدين اللذين لا يهمهما ايضاً الاَّ اللعب والزيارات الفارغة

وفي الختام يجب أن نفهم كلّنا أن السعادة ليست في هذه الحياة بل سعادتنا في الحياة الأُخرى، وهذه الدنيا ليست الاَّ دار عذاب ومحلّ شقاء ووادي دموع، على ما وصفها الآباء القديسون. انما الذي يقوم بواجبه ويلّبي دعوته عن نفس طيّبة وبصبر فهو يكون أقلّ شقاء من غيره. فالكاهن الذي لا يلّبي دعوته ولا يقوم بواجبه يكون تعِساً مهما سعى وراء الراحة والمجد العالمي. والعالمي البتول إِن لم يحفظ بتوليته بتضحية وجهاد يكون تعِساً. والمتزوج الهارب من واجباته يجلب الشقاء عليه وعلى عيلته. بل السعادة الحقيقية النسبية تكون للكاهن والبتول والمتزوج القائمين بواجباتهم. فهؤلاء يضمنون فوق ذلك لأنفسهم السعادة الحقيقية المضمونة للوكيل الأمين الذي يقول له الرب : ((نعماً أيها العبد الامين. قد وُجدت أميناً في القليل فسأقيمك على الكثير. أُدخل إلى فرح ربك)). آمين

واجبات الزواج

عندما يتقدم العريسان يوم الفرح، في حفلة وضع الاكليلين، بأَثوابهما القشيبة وأُهبتهما التامَّة بين باقات الزهور وصفوف المتهللين الفرحين لفرحهما، يسأل الكاهن الممثل الكنيسة العريس: هل تريد بتمام رضاك أن تتخذ الآنسة فلانة زوجة شرعية لك بحسب قوانين الكنيسة المقدسة ؟ ويلقي على العروس السؤال نفسه بالنسبة إلى زوجها. فيجيبان: نعم. فكثيرون من الحاضرين لا يجدون في هذا الجواب الاَّ لذة سماعهما العريسين يجيبان بدرجات مختلفة من الخجل والإِقدام لفظة ((نعم)). ولا يرون في حفلة الاكليل الاَّ ظواهر، ولا يفقهون ما وراءها من العهود الخطيرة وما يتبعها من واجبات هـذا السر . مع انّ في ذلك الجواب عهداً يفرض على كلا العروسين واجبات تمتدّ مدى العمر كلّه، ويتردد صداه في الابدية. لان الحياة الزوجية تكون سبب سعادة الزوجين او هلاكهما في الدّارين. ولذلك رأيت من الواجب، ونحن نتكلم على سر الزواج المقدس، أن اشرح ما تحتوي كلمة ((نعم)) من الواجبات الزوجية، من واجبات الأمانة والمحبة المتبادلة وحسن تربية البنين. وهاأناذا باسط امامكم تأريخ زواج لم يفهم فيه العريسان لفظة نعم، فتولّد من ذلك الشقاء لهما في الدنيا والآخرة،

وزواجاً آخر فهم فيه العريسان مغزى لفظة نعم، فنتجت من ذلك لهما السعادة في الدارين

فهوذا شابٌّ قد علّق سعادة مستقبله على مال وافر يأخذه بائنةً (دوطة) من فتاة سحره قوامها الرشيق وحركاتها الُمرضية ولم يستقصِ عن اصلها ووالديها وحسن تربيتها وصفات عقلها وقلبها وإرادتها وحُسن إدارتها للمنزل، فعقد النية على الزواج بها، وقد تمَّ ذلك . ولم يرَ في هذا السرّ سوى جهازٍ ونفقات الافراح في شهر العسل وباقي المظاهر الخارجية

مضى ما يسمى شهر العسل. وربما لم يدُم العسل الشهر كله، بل بدأت المرارة تظهر. فقد توهّم الشاب أن الكمال في رشاقة القد وسحر العينين، ولم يعرف مقدار عقل زوجته من الصواب، ولا طيبة قلبها ودماثة أخلاقها ومعارفها البيتية، فظهر له ذلك كله بعد وقت قليلٍ ناقصاً، ولاحظ مع الجمال الطبيعي خفةً في السلوك وميلاً عظيماً إلى المرح والطيش . وبعد مدّة لاحظ ان المال الذي بنى عليه الآمال قد خسره بمضاربة البورصة او في اسهم مالية او في شغل غير رابح، فرأى صرح آماله قد هُدم ورابطة عقد زواجه قد تفككت. واذا فرضنا بقاء المال، فالمال لا يغني عن الاصل ولا عن رقة الاخلاق. المال لا يعطي الصبر والفضيلة ولا يُنشئ حبّ الواجب

بدأ العريسان يعرف احدهما عيوب الآخر، ونشأَت قلَّة الثقة بين الطرفين، ففترت المحبة واخذا يتشاحنان في أمور لا طائل تحتها، وكلٌّ منهما يريد أن ينفِّذ مأْرباً؛ الزوج

يريد أن يُرتّب أمور البيت الداخلية في ما لا يعنيه، والزوجة تهتمّ بأموره الخارجية في ما لا يعنيها، وقد جعلت موضوع اهتمامها أن تبغِّضه بأَهله، لكي تبعده عنهم وتنال حرّيتها التامّة. طال النفور والنزاع في البيت، ولا فضيلة تروع الزوجين، ولا سر اعتراف ينقِّيهما، ولا تناول قربان يخفف وطأَة المحنة، ولا تأمُّل او صلاة تهدي الفريقين. فتأصَّل البغض في قلب الزوجين، وأَخذ الزوج يغيب عن البيت ما امكنه، قاضياً أوقاته في المقاهي، ولياليه في دور السينما والمسارح. وأخذ يلعب بالقمار ويرمي فيه مالاً كان أولى ان يُنفَق على المنزل. طارت المحبة الزوجية من قلبـه، فاصبح من المحتّم أن يعطي قلبه لغير زوجته، واصبحت العيشة الزوجية شبيهة بعيشة جهنم. فأَخذت الحليلة التعِسة تندب سوء حظها وتقول : قد وعدني بأَن يستعمل ماله في البيت، وهوذا ينفقه في الخارج. وعدني بالمساعدة الزوجية، والآن تخلَّى عني فهو خائن مُخلف بوعده، خائن في الأمانة وخائن في المحبة وفي العهد . و لَّما لم يكن لهذه الزوجة فضيلة راسخة تهديها وتعزيها فقد هامت هي ايضاً على وجهها ساعية وراء ملذتها، وهي الطامَّة الكبرى ومنتهى الشقاء. ومع سوء سلوك هذين الزوجين، رزقهما الله اولاداً. فما أتعس ما كان حظُّهم، اذ قد افتتحوا حياتهم بسماع الخصام بين والديهم، وتعلَّموا قلة الاحترام لوالديهم، والألفاظ البذيئة والشتائم مع قلَّة الدين

كبر هؤلاء الاولاد ولم يشعروا بالحنوّ الوالدي، ولم تنمُ فيهم عواطف المحبة والاحترام والاكرام. وتربَّوا في مدارس تعلّموا فيها بعض الواجبات ولكن لم يستفيدوا منها لأنهم لم يَرَوا أمثالاً صالحة، والاعتماد في التربية على الاهل اكثر ممَّا هو على المدارس، فكبروا وصاروا

اولاداً جديرين بوالديهم، ومن أشبه والدَيه فما ظلم. فلا برَّ بالوالدين، ولا احترام ولا محبة. فقد وَلد ذانك الوالدان اولاداً للغضب، وهما يحصدان ما قد زرعاه

داهم المرض ذاك الأب، فلم تجُل ولا عاطفة رحمة في قلب البنين لمعالجتهِ، وظلّ قلب الزوجة نافراً منه. فلم يصل ذاك الاب المسكين إلى سنّ الكبر، لان حياة النَّكد تقصِّر العمر. ولما وافى أجله لم يفكر أحد في استدعاء كاهن يساعده على ملاقاة ربه. مات، فكان البكاء تظاهراً خارجيًّا امام الناس، ثم غُيِّب ولم تستمطر عليه رحمة. فقد تزوَّج للسعادة، فكان طيشه في زواجه سبباً لشقائه في الدنيا والآخرة

فلنصرف الآن نظرنا عن هذا المشهد التعِس ولننظر إلى زواج مسيحي سبقه التروّي وطلب إلهام الله، ورافقته النعمة والفضيلة، فانتج السعادة في الدارين

فقد استعدّ الشاب المسيحي هذه المرة لزواجه بدروس حسنة حصل فيها على الشهادة الممتازة، وحصل على وظيفة رابحة او عملٍ مجدٍ بفضل كدّه وجهده. فاخذ يقتصد في نفقاته، ويحسن استعمال وقته، مستعدًّا للزواج. ولم يقدم عليه الاَّ بعد التروّي والصلاة. فقصد عيلة مسيحية فاضلة، عُرف فيها الأب بالتقوى وحبّ الشغل والاستقامة وعمل الخير، وعُرفت الأم بالحشمة والرصانة والتدبير المنزلي وحسن التربية مع الصحة التامة والذكاء والذوق السليم. فخرجت الفتاة من بيت الفضيلة والأدب، وتعلَّمت في مدرسة البيت اكثر ممَّا تعلَّمت في المدارس الراقية

فطلبها غيرَ وجلٍ على مستقبله، واستعد ليوم الزفاف بالصلاة والفطنة، وتقدّم امام الهياكل المقدسة طالباً البركة وواعداً زوجته بالأمانة والحب وتضحية الذات. وهكـذا فهم الزوجان معنى كلمة ((نعم)) في حفلة العرس، وطلبا النعمة لكي يثبِّت الله مقاصدهما، ففرحا الفرح الحقيقي المقرون براحة الضمير ورضى الوالدين

وبعد ما نالا البركة جعل الزوج الشغل رائده وأَخلص الحب لمن وقفت حياتها وأوقاتها واثمن ما لديها في سبيل حبه. ومن واظب على الشغل والاستقامة لا بُدَّ أن ينجح. وإِن لم يصبح غنيًّا فليس ذلك بضروري للهناء، فهو يعيش شريفاً مستوراً مستريح البال، وقد شارك امرأته في افراحه واحزانه، فحملا عبءَ الحياة معاً. فالرجل يأتي بنتيجة أتعابه إلى البيت، والمرأة تساعده في الاقتصاد المنزلي وتدبير أمور البيت بكل فطنة

وبعد أَن يكون الزوج قد شعر بوطأة العناء في شغله واحتمل ثقل النهار وحرّه، يأتي إلى البيت، فتبدّد شريكة حياته كل همومه، وتساعده في اليوم التالي على معاودة النشاط

واذا دخلتَ البيت رأيت فيه النظافة والترتيب سائدين، وفيه كامل الاثاث والأواني والادوات و اسباب الراحة المعتدلة، دون بذخ ولا تبذير

وفي كل صباح ومساء يجثوان معاً للصلاة. ويوم الاحـد يذهبان معاً إلى الكنيسة. فيتقدمان إلى المائدة المقدسة، ويتناولان خبز الملائكة، ويجددان عهودهما امام الله

ومع الامانة يمارسان المحبة. فكل واحد منهما يعرف ان الكمال لله، وان الانسان لا يخلو من العيوب. لذلك اصبح كل واحد منهما يبحث في إرضاء الآخر : فيدرس ما يطيب ويلذّ له ويقدمه لشريكه. ولا يفترقان في الزيارات. وما اجمل الحياة في التضحية والمحبة! فهما عقلان يجتهدان بأن يريا نور الحقيقة معاً، وقلبان اجتمعا ليخفف أحدهما عن الآخر مصاعب الحياة، ونفسان تعاقدتا على أن تعيشا عيشة ترضي الله والقريب في الفضيلة وعمل الخير

تقدّما في العمر فازداد حبهما المتبادَل. ورُزقا البنين، فرأَيا فيهم عطيةً من الله، وبذلا جهدهما ليربّياهم تربية صالحة مسيحية ويجعلاهم فيما بعد من ابناء الملكوت. وقد تساعدا في التربية: فلم يُبديا لأَحد أولادهما افضليةً على سواه، لئلا ينشأ الحسد بينهم، ولم يختلفا عند تونيب احدهما لهم، ولم يسمع الأولاد منهما الاَّ كلام المحبة والاتفاق، فربي الاولاد على محبة والديهم واحترامهما

وبعد أَن وضعا أساس التربية في البيت على الطاعة والصدق والاستقامة، قصدا اتمام تربيتهم في المدارس. فاختارا احسنها في العلم والتهذيب، عالمين بان التربية افضل رأس مال للأولاد. فنما الأولاد على طاعة والديهم وعلى محبتهم. وكبروا وكبرت معهم طاعتهم ومحبتهم لوالديهم. وكان ذلك لهما أعظم تعزية. فعاشت العيلة على أتمّ الوفاق والهناء، ولم يحدث شيء يعكِّر صفاءَهما

ولما وقع احد الزوجين في مرض، حينئذٍ ظهرت المحبة الزوجية بكل مظاهرها. وما أكثر ما لاقى الزوج من تفاني الزوجة في الخدمة والسهر والمساعدة المتواصلة. فكانا متشاركين في الأفراح والأتراح. ولما حل بالزوج المرض والعجز، فالخدمة ما زالت متواصلة ومعها الاحترام من قِبَل الزوجة. فكانت خدمتها في آخر يوم كما في اول يوم. ولما دنت ساعة موت الزوج، قدّمت الزوجة للمحتضَر كل ما امكنها من المساعدات المادية والروحية. فلفظ الزوج روحه امام خالقه وهو مجبور الخاطر. فبكته الزوجة والأولاد بدموع حارّة، وحفظوا له ذكراً دائماً في صلواتهم. وكانوا يقيمون القداس كل سنة لأجل راحة نفسه. وبقي ذكر فضائله موضوع حديثهم كلّ حياتهم

تلك هي الحياة الزوجية التي تولي السعادة. وقد شاهدنا مثل هذه التضحية في أسر عديدة. وشاهدنا نساء يخدمن رجالهنّ بكل صبر و أناة، وقد دام عجزهم السنين الطوال. شاهدنا نساء، وقد خان الدهر رجالهن فلم يعودوا قادرين على كسب معاشهم، يقمنَ مقام الرجال ويربين الأولاد ويسعَين السعي الحثيث في كسب معيشة اهل البيت، فبقي رجالهن في كرامة إلى النفَس الاخير من حياتهم. شاهدنا رجالاً يقضون العمر كلّه ولا يقولون كلمة واحدة جارحة لزوجاتهم

شاهدنا والدين يربون اولادهم التربية الصحيحة، ويعلِّمونهم الصدق والاستقامة، ويعرفون أن يرفضوا عند الضرورة مطاليب اولادهم الغير المعقولة مهما تعالت أصواتهم في البكاء . وشاهدنا والدَين يعلِّمان اولادهما بـذل الصدقة، فيقودانهم إلى الكنيسة ليصلُّوا معاً. وعند

دخول الكنيسة يعلِّمان اولادهما الصغار ان يشعلوا شمعة فيها ويحسنوا الوقوف والجلوس في بيت الله، ويقدّمان للفقير صدقةً على يد اولادهما ليعتادوا اعطاءها، ويجعلانهم يشتركون في مشاريعنا الخيرية وفي جمعية القديس يوحنا فم الذهب، ويعطيانهم الامثال الصالحة في احترام الكهنوت وكل ما هو ديني؛ والابن ينْشا على ما كان والده.... وسمعنا والدين يقولون لأولادهم ما قالته بلانش دي كاستيل ملكة فرنسة لولدها القديس لويس : اني أفضل أن أراك مائتاً في حضني على أَن أراك ترتكب خطيئة مميتة واحدة. وهكذا يُتاح لنا أن نرى بفضل التربية المسيحية أُسراً سعيدة تعيش في تمام الاتفاق والأمانة والمحبة وتهيِّئ للذريَّة عيشة سعيدة على قدر ما توجد سعادة في هذه الدنيا وتضمن لذاتها ولنسلها سعادة الآخرة

كثَّر الله أمثال هذه الأسر الصالحة، زينة الطائفة وفخر الكنيسة، وتعزية الرؤساء الروحيين وموضوع مسرة الله على الأرض ومنبت المختارين في الحياة الآتية. آمين

الحياة في النادي الكاثوليكي السوري

أيها الشبان الأفاضل

جاء في سفر طوبيا ان رعوئيل لما نظر إلى ابن طوبيا الصديق قبَّله بدموع وبكى على عنقه وقال: ((بركة لك يا بني! انك ابن رجل صالح فاضل)). وانا عندما انظر اليكم ايها الشبان المسيحيون تشملني هذه العاطفة ذاتها فأقول : بارك الله فيكم! انكم بنو رجال صلاَّح افاضل، انكم بنو الشهداء والابرار، فان لكم تاريخاً مجيداً حافلاً بالأمثال الصالحة والمآثر العظيمة، أنتم بنو الشهداء الذين سفكوا دماءهم بعدد الملايين في توالي الاجيال ليحافظوا على حقائق ايمانهم خالية من كل شائبة ضلال، انتم بنو قديسين لا يحصى عددهم وقد حفظ التاريخ ذكر بعضهم والغربيون يفوقوننا في تمجيدهم، أنتم حفدة اولئك الابرار الذين داسوا ملذات العالم وقهروا نفوسهم لئلا يُستعبَدوا للحواس وقد مشى في مقدمتكم في هذه البلاد الشرقية الأنبياء والرسل ومريم العذراء ولا سيما السيد المسيح الذي هو الطريق والحق والحياة. انتم بنو آباء واجداد جاهدوا سحابة عشرين قرناً بين امم مختلفة وأديان متناقضة ليحافظوا على كنز ايمان غير منثلم ويسلموا اليكم ميراث فضائل مسيحية وصفات حميدة تحلَّوا بها . فان بين ايديكم إِرثاً ثميناً قد أَنفق عليه اجدادكم عرقهم ودمهم. فأنتم مطالبون بالمحافظة على هذا الارث

وفي عصرنا الحاضر لم يُغفِل آباؤكم تربيتكم، فان لم يضعوا بين ايديكم رأس مال كبير فقد اعطوكم افضل رأس مال في التربية الحسنة: فقد جدّوا و كدّوا وانتم في المهد واعطوكم الأمثال الصالحة ثم وضعوكم في أحسن المدارس فاقتضت منهم تربيتكم دم اكبادهم إلى أن حصلتم على مبادئ قوية وعوائد حسنة وعلوم كافية وشغلتم وظائف بدأت تحقّق آمالكم وهي تبسم لبعضكم عن مستقبل زاهر. لكني ارى في بداية تحقيق هذه الآمال خطراً يُخشى معه ان تضيعوا فيه كنز ايمانكم وارث فضيلة اجدادكم، وهوّة تهوي فيها اتعاب آبائكم عليكم. لأننا نرى الكثيرين يتغلب عليهم هذا العصر، عصر المادة والترفـه ويجرفهم تيَّار البيئة بضلاله وفساده. فلا يرون غاية من اتعاب اجدادهم وآبائهم عليهم سوى ان يشغلوا وظيفة ينالون بها الملذات الجسدية بكل انواعها. فيقصرون أحلامهم على جمع المال ولا يرون في هذه الحياة الاَّ عيشة هنيئة وزواجاً مُريحاً ونُزهاً كثيرة وملاهي عديدة مكتفين بالتخلق بأخلاق من يعيشون بين ظهرانيهم. فلا يعطون للتقوى والفضيلة واعمال البر الا النزر اليسير من وقتهم وأموالهم، اللهم ان بقوا محافظين عليها

اجل اننا لا ننكر عليكم ضرورة الاهتمام بالماديات فنحن مركبون من نفس وجسد، والجسد لهُ مقتضيات كثيرة ولا سيما في عصرنا حيث كثرت لا بل فاضت التطلبات : تطلبات بيوت واسعة و أثاث فاخر، وتطلبات الزوجة للجواهر والحلى والنُّزه والف رغبة وهوًى غير مردودة، وتطلبات مدارس لا ترحم واولاد لا يشفقون، وتطلبات يزيدها طمعنا الأشعبي، ورغبة الصغير في تقليد الكبير، والفقير في مساواة الغني الموسر. كل ذلك يقتضي منكم جدًّا وكدًّا وسهراً وهمًّا. وانتم لا تحصلون على ما ترغبون. وبعد هذا الكد والعناء لا

تشعرون بلذة حقيقية ولا براحة بال، لا بل كلما تقدمنا في التمدن ازدادت همومنا. ولا يتوهمن متوهم اننا بقولنا هذا ندعوكم إلى الخمول والكسل وعدم الاهتمام بأمور الحياة. كلا فإننا اول من يحضنكم على السعي والجد لتنالوا نصيباً حسناً في الجهاد في معترك الحياة . ولكن لا ننسَ مع الاهتمام بالجسد أن لنا نفساً هي اهم جزءٍ فينا، بها أصبحنا على صورة الله ومثاله، وهي تجعلنا شبيهين بالملائكة. فهذه النفس لها قوى وغرائز ينبغي أن تحيا : لها عقل وارادة ينبغي أن يغتذيا ولها حياة ينبغي أن تنمو. لذلك رأينا من الضرورة أن نكلمكم عن حياة العقل والارادة والنفس وعن الحياة الاجتماعية. فان لكم حقًّا في هـذا النادي أن تطلبوا منه ليس نزهاً وسهرات فقط، بل أن تقتضوا منه ايضاً نوراً لعقولكـم وقوة لعزائمـكم وغذاءً لنفوسكم. وبذلك تتقوى فيكم حياة السيد المسيح التي لأجلها أتى الى الأرض وهو القائل: ((انما أتيت لكيما لتكون لهم الحياة وتكون لهم أوفر)) (يوحنا 10 : 10)

أولاً : حياة العقل

وأول حياة ينبغي ان تتدفق فينا حياة العقل، فالإنسان بعقله اكـثر مما هو بجسمه. وليس من ينـكر على السوري او المصري البالغ المدنية منذ اجيال عريقة في القدم ذكاءً فطريًّا وعقلاً ثاقباً. وانتم قد برهنتم عن هذا الذكاء، اذ أَكببتم منذ صباكم على العلوم في المدارس، فكان

منكم الحائز على قصبة السبق في حلبة العلوم والفائز بالشهادات العالية. وها قد اخذتم تجنون ثمار اتعابكم في العلوم والفنون و المهن التي تتعاطونها، ففيكم المحامي البارع والطبيب النطاسي والكاتب المفكر والتاجر المحنك والمستخدم الفطن. بيد اننا نشاهد الكثيرين بعين الاسف يستسلمون إلى الراحة بعد أن تكللوا بأكاليل الغار وفازوا بوظيفة تكفل لهم المعاش، فلا يحاولون ان يزيدوا معارفهم حتى في فنهم ومهنتهم، ولا يرون داعياً إلى اجهاد نفوسهم ما داموا حاصلين على الغاية من المكسب، لذلك تندب بلادنا قلة عدد الرجال الفنيين الاختصاصيين

على اننا بعد أن حصلنا على وظيفة تكفل لنا بسطة في العيش لا يزال عقلنا محتاجاً إلى الغذاء. وان عقلنا يغتذي من الحقيقة التي هي غايته. واهم الحقائق هي معرفة الله خالقنا ومعرفة

نفسنا والخلائق التي تقودنا إلى غايتنا . لذلك كل شيء أن نطلع على العلوم الدينية ثم نوسع دائرة عقلنا ما امكننا من المعارف الطبيعية والرياضية والتاريخية وسائر العلوم

فأي نصيب نال عقلنا من هذه المعارف؟ أَفلا يوجد أُناس يجهلون ما تجب معرفته عن الله وكمالاته وعن السيد المسيح والكنيسة وعن حقائق وواجبات لا غنى لهم عن معرفتها، فيكتفون بما تعلموه على مقاعد المدرسة؟ ويا ليتهم استمروا حافظين ما تعلموه! فيسمعون الاعتراضات الحاطة لإيمانهم ولا يحيرون جواباً! ولا يشعرون بضرورة مطالعة الكتاب المقدس ولا سيما الانجيل! ولا نقدر ان نفهم كيف يعيش مسيحي لا يطالع الانجيل! ويا

ليتهم في حديثهم يقرّون بجهلهم لحقائق الايمان! فهم اذا اقروا بعجزهم عن معرفة باقي العلوم يظنون ان لهم في الدين اطلاعاً وافياً فيتشدقون في المشاكل الكبيرة الدينية بفصاحة مثبتين أو نافين أدق المسائل بجسارة لا مثيل لها! وان كان لهم بعض الاطلاع على التاريخ فليس على تاريخ كنيستهم وبلادهم فانهم نسوا تقاليدهم المجيدة وعوائد بلادهم الحسنة واكتفوا بتقليد أعمى لعوائد اجنبية مُضرة. فاذا احبوا أن يقرأوا تهافتوا على مطالعة الجرائد الخفيفة والروايات المفسدة. ولذلك قلَّ اصحاب المبادئ الراسخة والتعاليم القويمة وقلت الرصانة في أحاديثنا وكثر المجون في اجتماعاتنا. واصبح كثيرون منا يقضون أوقات الفراغ في رقص ولعب قمار وطيش جارين مع التيَّار العصري الجارف. ولكي يتلافى النادي بعضاً من هذه الأخطار قد أسس مكتبة فيها احسن المجلات والجرائد والكتب النفيسة في كل علم وفن؛ على انها لا تزال محتاجة إلى مساعدتكم وتبرعاتكم. ثم لا يفتخر النادي بكونه قد اقتنى كتب نفيسة، بل الأمل الوطيد بان تطالعوها وتنتفعوا منها. وما عدا ذلك فان النادي كما تعلمون له محاضرات يلقيها خيرة شبابنا وأدبائنا وفيها المقالات الشائقة والمناظرات المفيدة، ولنا كل الثقة بهمتـكم أن تقبلوا على سماع ما يلقى عليكم منها برغبة ولو اضطررتم في جانب ذلك إلى التضحية بوقتكم الثمين وبعض ملذاتكم، فهذا ما يقتضيه غذاء عقولكم، وهذا ما يقتضيه فرض المجاملة و المعروف نحو من يقفون أوقاتهم ويضحون بملذاتهم في تحبير هذه المقالات والقاء هذه المحاضرات

ثانياً : حياة الارادة

ومتى استضاء العقل بنور حقائق الوحي ونور العلوم الراسخة كان ضياؤه منشطة لحياة الارادة. فان الارادة تستمد قوتها مما يعرضه العقل لها من الخير الذي تسعى وراءه. فمن الضروري أن نحسن ادارتها، وقد ارتخت العزائم في هذه الأيام وأَصبح الذين يقودون انفسهم في طريق الحياة نزراً قليلاً، وظلّ الأكثرون مسيَّرين في عوائـد وتقاليد ورسميات تجعلهم كآلات محرَّكة فلا يعرفون أن يقدموا على عملٍ خطير ولا يحسنون اتقانه

وقد زاد ارادتهم ضعفاً استسلامهم إلى الملذات الحسية بأنواعها لذلك يبتعدون ما امكنهم عن الأعمال التي تقتضي في التروي والاقدام والمثابرة، فيتهافتون على الملاهي وأعمال الطيش، ولا شيء يهدم الارادة مثل التمادي في طلب الملذات. فالشعوب العظيمة سادت على العالم بجدها ونشاطها وحسن بلائها في الحروب، وسقطت من عزها وسطوتها عندما مالت إلى الترف والترفه. فلا تطلبوا من المستعبد لشهواته افكاراً رائقة ولا عزماً متيناً ولا حبًّا صادقاً ولا مثابرة على العمل : فأفكاره سطحية وعقله تائه وقلبه مائع وعزمه رخوٌ ولا قدرة له على عمل جدّي. فاذا قرأ عمد الى الروايات المهيجة للحواس، واذا رغب في الراحة ذهب إلى حضور السينما والرقص غير اللائق و الروايات الخفيفة فترتخي والحالة هذه عزائمه ولا يبقى له قوة على مقاومة الشدائد واحتمال مصاعب الحياة؛ لذلك يقضي حياته وهو يتراوح بين الفرح والقنوط، بين التحمس في طلب الملذات واليأس في المصاعب

على ان الارادة هي القوة المعطاة لنا لنسعى وراء الخير الحقيقي الذي هو الله ولنتخذ الوسائل المؤدية إليه تعالى. فان الكمال على هذه الأرض هو في اتمام ارادة الله، وارادة الله

تقتضي محبة الله ومحبة القريب وقهر النفس. ولا محبة حقيقية لله الاَّ بمحبة القريب لان الله الذي لا يُرى وضع مقامه القريب الذي نراه، فما نؤدّيه الى القريب من الخدم نقدمه لله. وقد عرّفنا السيد المسيح انه يكافئنا يوم القيامة على مقدار محبتنا للقريب. لذاك ترون كل من اراد ان يتقدم في محبة الله يُقدِم على الاعمال الخيرية. وانهُ ليسرنا أن نرى العدد الأكبر منكم في جمعية القديس منصور او القديس يوحنا فم الذهب او في سواهما. واننا نلاحظ أن هؤلاء الشبان هم العاملون على تعزيز المشاريع الخيرية وهم ساعدنا اليمين في اعمال البرّ. لذلك نرغب رغبة شديدة من كل شاب تساعده الظروف أن ينخرط في سلك هذه الجمعيات، فهو والحالة هذه ينفع نفسه اكثر مما ينفع غيره لان عامل الخير أكبر محسن إلى نفسه لما يبقى له من الحقوق على المكافأة طبقاً للآية المعروفة ((من يعطي المسكين يقرض الله))

وان حياة الارادة انما هي في ممارسة الفضائل كالاستقامة في الاعمال والصدق في الكلام والمحافظة على المواعيد، وهذه صفات اساسية للمعاملات بين الناس، والحزم في المثابرة على العمل ومقاومة الصعوبات. واهم عمل للإرادة هو تحكيم العقل على الأهواء، حيث يحافظ المرء على راحة ضميره وشرفه وارضاء الله. وكل ذلك يقتضي عزماً وحزماً لقهر النفس الامارة بالسوء. وبهذا المعنى قال السيد المسيح: ((ان ملكوت السماوات يُغصب والغاصبون يختطفونه)) ، فالخلاص الأبدي مسألة ارادة في اتمام وصايا الله وفي التسليم لأحكام الله وفي دوس الشهوات المحرمة، فلا قداسة حقيقية ولا تقوى راهنة الا مع قوة الارادة . وقد وصفوا الحرب الاخيرة فقالوا هي حرب ارادة. وقال فوش أن الجيش الـذي تقوى ارادته على خصمه مدة ربع ساعة هو الفائز وبالحقيقة لا نقوى على عمل خطير ولا نستحق اسم

الرجل الا على قدر ما نكون اقوياء الارادة. ومن كان مالكاً ارادته كان هو الملك الحقيقي. فهو رائق البال، ثابت الجنان، رصيناً في الافراح، متجلداً في الاتراح والمصائب

هذه الصفات الشخصية للإرادة ينبغي أن تكون مقرونة بالصفات العيلية : بحب الوالدين والطاعة لهما والقيام بواجب المعروف نحوهما ولا سيما في أيام شيخوختهما، وممارسة المحبة المتبادلة بين أفراد الأسرة. فالبعض يرتاحون إلى ممارسة أفعال المحبة للقريب ولا يفتكرون أن ممارستها نحو من نعيش معهم في كل آن اشد الزاماً أيضاً

ولكم ايها الشبان الاعزاء في هذا النادي خير مساعد على قوة الإرادة. فكما أن العشرة الرديئة تفسد الأخلاق السليمة كذلك العشرة الحسنة تفيد الاخلاق جودةً والارادة قوةً والانسان نشاطاً على عمل الخير، لان المثل الصالح يزيد عدد الصلاّح. فان فيكم والحق يقال شباناً أماثل قد نالوا خير تربية فهم مثال صالح في حسن القيام بوظائفهم والاستقامة والشرف والمحبة الأخوية والعفاف وخدمة القريب ولنا حق ان نفتخر بهم. اكثر الله من امثالهم!

ثالثاً : حياة النفس

على أن الحياة العقلية والادبية غير كافية ان لم تكن مقرونة بالحياة الروحية أي حياة النعمة. لا بل ان حياة النعمة هي روح النفس كما أن النفس هي روح الجسد. وقد يكون الواحد منكم آية في الجمال و نابغة في العقل ونادرة عصره في العلم وروتشلد زمانه في المال ومزداناً بكل الصفات الطبيعية، فان لم تكن فيه حياة النعمة فنفسه ميتة وهو عدوّ الله

وأتعس خلقه. فان الله قد وهب الانسان منذ خلْقه لهُ هذه الحياة الروحية، حياة النعمة التي بها جعله ابناً له ووارثاً لملكوته. ولما فقدها آدم بالخطيئة استرجعها السيد المسيح بسفك دمه الاطهر على الصليب، واكتنزها واذخرها لجميع ذرية آدم، بحيث يستطيع كل انسان ان يختصها لنفسه بقبوله معمودية الماء أو الشوق او الاستشهاد. واذا فقدها لسوء حظه بالخطيئة المميتة فهو قادر على استرجاعها بسر التوبة اذا كان صادقاً في توبته

فهذا الكنز الثمين كنز الحياة الروحية يُخشى علينا ان نضيعه ولا سيما في هذا العصر، عصر المادة والطيش، وخاصة في البيئة الفاسدة التي نعيش فيها. فان تياراً شديداً من الفساد والملاهي والعشرة الرديئة يحاول ابتلاعنا. فان لم نحسن السباحة غرقنا وهلكنا لا محالة، اذ انكم لا ترون حولكم الا عالماً متهافتاً على كسب المال بكل ما أمكنه من الوسائل المحللة والمحرَّمة، وأناساً متسابقين إلى حضور السينما الخفيفة والروايات الخلاعية والرقص المختلط الخالي من الحشمة. فان لم يصعد الأبالسة من الجحيم ليغووكم وجدتم حولكم أبالسة ارضيين يتكفَّلون بإغوائكم. فان لم تكونوا اقوياء و اشداء أدرككم الفشل. فكل مسيحي يريد أن يقي نفسه من الفساد لا بدَّ له أن يتذرَّع بالوسائل الواقية، وينبغي أن يتخطَّ لنفسه برنامجاً من الاعمال التقوية والخيرية وممارسة الفضائل اليومية ولا يحيد عنه. فيحافظ على صلاة الصبح يوميًّا مقدماً لله اعمال النهار، وليحضر الذبيحة الالهية ان امكنه، والا فليزر الكنيسة ولو بضع دقائق، ويتناول قوت الحياة ما ساعدته الظروف، لأنه بقدر ما يقترب من خبز الحياة يضمن لنفسه هذه الحياة، حياة النعمة. ثم فليُلزم نفسه بقراءة وجيزة في كتاب تقوي ولا سيما في الكتاب المقدس والانجيل الطاهر. وليبتعد عن

العشرة الرديئة ابتعاده عن الوباء القتال. وليعوّد نفسه الحسنة اليومية مهما كانت صغيرة. وليجعل كماله في اتقان شغله وحسن القيام بوظيفته. ثم يثابر كل يوم على فحص الضمير قبل أن يتلو صلاة المساء. فاذا كان الذي يتخذ هذه الوسائل لا يزال ايضاً في خطر الزلق فماذا نقول عن الذي لا يتخذها؟ انه واقع لا بل يجب عدُّه من الاموات؛ إذ يقضي حياته في سكر الطيش إلى أن يصحو في الأبدية ولات ساعة صحو او توبة

ولا عبرة لاعتراض البعض بانّ الناس الاتقياء ليسوا بأكثر استقامة منهم، لأنه اولاً لا يحق لاحد ان يدين غيره، فالدينونة الله وحده. ثم ان الاستقامة فضيلة طبيعية ولذلك قد يتحلى بها الغير المؤمنين انفسهم كما يتحلون بسائر الفضائل الطبيعية. بيد أن التحلي بها لا يعني أن صاحبها قد بلغ الكمال كله، بل يبقى عليه أن يضم اليها اساس بقية الفضائل و ممارسة افعالها. وبخلاف ذلك أن الإخلال بالاستقامة ليس من التقوى وحده والنفاق. ثم اذا أساءَ بعض افراد استعمال الوسائل المقدسة فليست اساءتهم هذه مبرّرة لتهامل المنتقدين. اجل ان هذه النعمة قد كثر ترديدها لكنها شاذة وفي غير محلها. ومن العدل والحكمة العدول عنها إلى حياة افضل واكمل

واخيراً اننا نرغب شديد الرغبة أن تكون ممارستكم للأفعال التقوية وانتم مجتمعون جملةً بهيئة اعضاء النادي اكثر مما فعلتم الى الآن لان للمظاهرة التقوية تأثيراً عظيماً في النفوس وهي من الأمثال الصالحة التي يطلبها السيد المسيح بقوله : ((ليضيء نوركم قدام الناس ليروا اعمالكم الصالحة ويمجدوا أباكم الذي في السماوات))

رابعاً : الحياة الاجتماعية

ويسرنا أن نرى هذا النادي واسطة كبيرة للتعارف والتآلف بين الطوائف المسيحية. فان له مزايا حميدة من هذا الوجه في ما يجلبه من انواع المسرة والتفكهة والمنفعة الروحية، اذ يجمع بين الأسر العديدة في نُزه تقضيها معاً فتكون كأعضاء أسرة واحدة، وقد كانت هذه الاجتماعات الى الآن آية في الادب والمجاملة والذوق السليم. وللنادي أيضاً فضل في ما يقيم من السهرات حيث يتبارى الخطباء والممثلون والشعراء و المرنمون والموسيقيون فيتنافسون في ارضاء الحاضرين وشرح صدورهم بطريقة ادبية تسر الجميع. وان ما رتَّبه واعدَّه النادي من الزيارات إلى الأماكن المقدسة وروما لفيه كما لا يخفي فائدة كبرى للزائرين، نجم عنها من المنافع الجغرافية والتاريخية والتقوية مما يبقى له اثر عند الزوار في الحياة كلها

بقي على النادي واجبات مهمة اجتماعية لا يقدر أن يتخلى عنها بغير أن يخلّ بواجب مقدس. فإننا نرى طوائفنا الشرقية عُرضة لتيَّار غربي يجرف عوائدنا الشرقية الحسنة، ويجعلنا نتقلد عوائد ذميمة تضر مجتمعنا وتفقدنا صبغتنا الشرقية القويمة، فان لم نقاوم هذا التيَّار فنحن مجرمون الى وطننا واحفادنا. فهل يهتم اعضاء هذا النادي، وهم نخبة من شبان طوائفنا المسيحية، بأن يحافظوا على تقاليد اجدادهم الحسنة، ويقفوا سدًّا منيعاً تجاه ما يرون فيه وبالاً على بني وطنهم؟ فهلا يتفق هؤلاء الشبان وينبذون جانباً ما يدهم بلادنا من الرياح المفسدة ويقفون رقباء لما ينتشر في هذه البلاد من الغازات السامة الخانقة ! فكل بلاد لها اناس حكماء عقلاء يمنعون المضار عن ذويهم فلماذا لا تكونون منهم؟ فهل نقبل كل

عادة ذميمة توافينا بحجة كونها اجنبية؟ و يا ليتنا نقبل العوائــد الحسنة التي عند الأجانب! و يا ليتنا نتشبه بأدباءهم! لكننا نقبل بلا ممانعة العوائد المستهجنة منها! فلماذا نقبل كل نوع من الرقص وان كان فيه ما يندى له الجبين الطاهر حياءً ؟ ولماذا نقبل حضور كل رواية مفسدة ونسقي منها ذوينا السم الزعاف ؟ ولماذا نبيح قراءة كل كتاب خالع العذار لأخوتنا وأخواتنا، ونجعلهم يفقدون في ساعة ما اكتسبوه في المدارس مدة سنين ؟ فهلا يكون بيننا جمعيات لمقاومة القمار ومقاومة المسكرات ومقاومة اللبس الغير المحتشم ومقاومة الرقص الخلاعي!

وحتى متى لا نزال نمتهن عوائدنا الحسنة ونترك اقدس ما عندنا من الفضائل من احترام والدينا و كهنتنا وطقوسنا ولغتنا ووطننا؟ فهل نكون كاليهودي التائه؟ وهوذا اليهودي التائه كاد ينجو من هذا التيه، اذ لقي شبه وطن. فهلا نبتدئ نتضامن ونتساعد وننفع تجارنا واطباءنا وصناعنا! ام نـدع الحسد مع الكبرياء يفنينا؟ ومتى نعوّد أنفسنا الاتفاق قلَّما في الأمور الضرورية؟ متى ننبذ جانباً المخاصمة والمشاحنة ومذمة بعضنا بعضاً؟ و ومتى نبتدئ بممارسة المحبة التي لا بد منها لندعى مسيحيين؟ فهل يجوز لكل انسان ان يقول ليس هذا من شأني ؟ أفلا يُعد هذا القول جبناً ونذالة؟ فكل انسان لا يعيش الا لنفسه في هذه الحياة فهو رجل اناني مضرّ بالمجتمع الانساني اكثر مما هو نافع له. فنحن متضامنون في هذه الحياة لبَث الحق ونشر الخير. وكما ان الله جل جلاله يقتص من بلاد باسرها بسبب ذنوب بعض المجرمين، فهو يبارك بلاداً برمتها بسبب فضائل بعض القديسين

وبعد ايها الشبان الأفاضل، أفلا يكون لنا، نحن الذين نلنا من النعم ما لا يحصى، على نفسنا وعلى ذوينا ما للملحدين والمـارقين عن الدين والمشتركين في الجمعيات السرية من الغيرة على بث الضلال والفساد؟ فهل يكون حبنا الله بلا ثمرة؟ وهل تكون تقوانا عقيمة ؟ وهل تكون محبتنا للقريب مقتصرة على الكلام ؟ وهل نمرّ في هذه الحياة ولا نبقي فيها أثراً للخير؟ فأين ايماننا الذي يعلمنا أن كل ما نفعله بأحقر رجل نفعله بشخص السيد المسيح؟ واين رجاؤنا الذي يعلمنا اننا سنكافأ حتى على كأس ماء بارد نقدمه باسم تلميذ للمسيح؟ وأين محبتنا للسيد المسيح الذي بذل ذاته لأجلنا، أَفلا نضحِّي نحن بشيء في سبيل ارضائه؟

فإلى الامام ايها الشبان الأدباء في سبيل الحياة العقلية والادبية والروحية والاجتماعية! إلى الأمام في تغذية عقولكم بحقائق الوحي وحقائق العلم الصحيح! الى الامام في تغذية ارادتكم بإتمام مشيئة الله وممارسة فضيلة المحبة وقهر الذات! إلى الأمام في الحياة الروحية، في المحافظة على نقاوة ضمائركم وعلى حياة النعمة؛ إلى الامام في نشر لواء الحق والخير بين اهلنا ومواطنينا. فالعمر قصير والابدية لا نهاية لها، ففيها المكافأة وفيها الراحة والسعادة! وفي كل مضايقكم ومصاعبكم انظروا إلى الاكليل الممتاز الذي يجزيـكم به الرب الديان العادل. تشجعوا فان يوم الرب قريب والمكافأة ستكون عظيمة. ((لان ضيقنا الحالي الخفيف ينشئ لنا ثقل مجد ابديًّا لا حدَّ لسموه)) (2 كور 4: 17)

امراضنا الاجتماعية

حب التقليد الأعمى

لا يخفى أن السوري او المصري المولود في بلاد صافيةٍ سماؤها، حادَّة شمسها، خصبة تُربتها، البالغ الحضارة منذ أجيال عريقة في القِدَم، قبل أن تتوالى على ارضه عدَّةُ ممالك متمدينة، حظيٌ بدلال الطبيعة، ومتمتع بأجمل غرائزها من ذكاء حادّ، ودماثة اخلاق رضية، ومرونة في التطبُّع، وسعة في الأفكار، مما يجعله، مع حفظ عوائده، يتخلَّق بأخلاق من شاء من البشر ويباري غيره في طباعه، ويحسن التكلم باللغات الأجنبية ويتمكن من معرفة اسرارها حتى تسمعه يلثغ باللغات الفرنسية فلا يختلف عن اهل باريس، ويدير لسانه بمهارة في فم مُغلق حتى لا يفرق عن احرار الانكليز، إلى غير ذلك من اتقان باقي اللغات التي لا يتميز فيها عن أصحابها، بينما لا يكاد غيره يقدر ان يتمثل به

وهو مع خيانة الزمان له مدة أعصر طويلة قاسى فيها من الجور والاضطهاد ما من شأنه أن يُطفئ انوار عقول غيره من الامم ويخمد نيران قلوبها، لا يلبث في أي بلدٍ يطأه ان يصبح مبرّزاً فيها بعد زمن قليل كما يجري لـه في باريس ونيويورك والبرازيل وسائر أنحاء المعمور. تلك الصفات التي وهبتنا اياها الطبيعة في مجاراة غيرنا حتى نتحدَّاه في وقت قريب قد اصبحت لنا في هذه الايام الخطر الكبير الذي يكاد يدكّ صرح مجتمعنا ويذهب بأخلاقنا ويجعلنا نمشي في مؤخر الأمم المتمدينة اذ أننا نستعمل هذه المميزات التي حبتنا بها الطبيعة لتقليدٍ لا تمييز فيه. فنأْخذ المُضر من العوائد الاجنبية وننبذ المفيد منها واللازم،

بينما نأخذ في نسيان عوائدنا الشريفة التي تحلَّى بها شرقنا مدة قرون طويلة. وقد فتك فينا هذا الداء وانتشر حتى اصبح من الاوبئة الخطرة التي لا يسعنا السكوت عنها

فمن واجباتنا نحن الأطباء الروحيين ان نبحث عن الأمراض الاجتماعية المضرة ونكشفها للشعب و نشخّصها له، و كجرَّاح ماهر نأْخذ المبضع ولا نخشى صُراخ المتألم لان بذلك شفاءَه. وقـد كثرت فينا الامراض الاجتماعية في عصرنا ونحن لا نعي، كأنّ غازاً خانقاً يضغط على صدورنا ونحن لا نشعر. وقد رأينا من الواجب في محاضرات هذا النادي ان نأخذ على نفسنا معالجة هذه الامراض بادئين اليوم بداء قد انتشر وعمّ وهو شاملٌ لعدّة أَمراض، الا وهو حب التقليد الأعمى للأجانب الذي فيه نبتلى بعيوبهم ولا نتحلَّى بحسن شمائلهم. ولي الأَمل من واسع حلمـكم انـكم تحتملون قولي وإِن مؤلماً، وأن لا تخشوا من رؤية الحقيقة مواجهةً، وإذا رأيتموها تبادرون إلى معالجة الداء قبل أن لا ينجع فه دواء. فالطبيب الصديق هو الذي يضع يده على الجرح ويشفيه، لا الذي يغمض طرفه عنه ويبقيه. ويشترط لشفاء العليل ان يجري على نصائح صديقه الطبيب الذي لا يصف له إِلاَّ كل ما فيه خيره وفائدته

قد قضى القدر ان يتغلَّب العنصر الأوربي على شرقنا في هذه الايام. وحتمت علينا الاحوال وخيانة الدهر أن نرانا متقهقرين من عدة وجوه. فاستيقظنا من رقادنا ورأينا الاجانب سبقونا وتفوَّقوا علينا بالعلوم والصنائع ولا سيما في العلوم الميكانيكيَّة. فبُهرنا من تقدُّمهم واخذنا ننظر اليهم نظرة الاعجاب في كل اطوارهم، وعدنا لا نعرف ان نميز بين السم والدسم وبين

ما هو تمدين او تقهقر. فأخذنا نتحدَّاهم تحدّياً اعمى غير جاعلين قبلة عزائمنا التشبه بجلَّة القوم و بالطبقة الراقية، بل متمثّلين بعيوبهم أكثر منا بصفاتهم الحسنة، وقد فاتنا أن التمدين لا يقوم فقط باختراع الآلات الميكانيكية وتسهيل طُرق المعاش بـل ينبغي أن يكون مرتبطاً بالمبادئ القويمة والاخلاق الحسنة والسعي في تخفيف ويلات الانسانية. فهذا التقليد الأعمى قد انتشر فينا إلى حدّ أن سرَت منه امراض عديدة في حياتنا الفردية والعيلية والاجتماعية

1 مرض التقليد في حياتنا الفردية

غير مُنكر ان للمدارس الاوربية فضلاً في تربيتنا في هذه البلاد وفي تعليمنا العلوم واللغات الاجنبية. الا ان علينا واجبات نحو الوطن بها نحافظ على قوميتنا ووطننا وعوائدنا الشرقية وهي الصبغة التي يمتاز بها كل شعب عن آخر . فإننا نتعلَّم تاريخ الاجانب وجغرافيتهم، لـكن ذلك لا يمنع من أن نُتقن معرفة تاريخ بلادنا وجغرافيتها. ونحسن التكلُّم بلغات الأجانب وهذا لا يعذرنا في عدم معرفة لغتنا. ونعجب من عوائد غيرنا لكن اعجابنا بغيرنا لا يقضي علينا بامتهان عوائدنا الحسنة

نعرف لغات الأجانب، لكن في كل لغة منها آداباً شائقة وكتبة مُجيدين، فنحن في غالب الاوقات بدلاً من أن ننتفع من المطالعات المفيدة من هذه اللغات نتهافت على قراءَة رواياتهم الخلاعية وجرائدهم الطائشة وكتبهم المفسدة ولا نكتسب منها الا امتهان عوائدنا الحسنة واخلاقنا القويمة

يخترع الاجانب ازياء مختلفة على اختلاف آدابهم وطبقاتهم فلا يقع نظر فتياتنا الا على ازياء البرنامجات وفي واجهة بعض المخازن المبلورة الملوَّنة الساطعة الضياء. فيداخلهنَّ الظن أن الكمال في ما يرينه من تلك المكلَّسات الوجوه المحمّرات الشفاه، المقصوصات شعر الرأس، العاريات السواعد، المكشوفات الصدور. والويل للاب او الزوج الذي لا يعرف أن يرضي امرأته او ابنته في اذواقها...

يتقلَّد السوريُّ الأجنبي في ما يضرّه، وكان الأولى أن يتقلدَّه في ما فيه منفعةٌ له : بالصراحة في القول، والصدق في المعاملات، والقيام بالوعد، والمحافظة على ميقات المواعيد بمضاء العزيمة، وتذليل العقبات، والثبات في العمل، بمزاولة الحِرف التي لم نألفها كالأشغال الميكانيكية والاهتمام بالزراعـة لا سيما ونحن في بلاد زراعية، وادارة المعامل والمصانع التي نحن في امسّ الحاجة اليها. فان الأكثرين منا اعتادوا بعض حِرف لا يتعدّونها، واذا ضاقت هذه الحرف في وجوههم لا يجهدون أنفسهم في توسيع موارد العيش ومزاولة اشغال أخرى كما يفعل غيرنا من الأمم

ينبغي أن يتشبه السوري بالأجنبي في لبس رجاله الافاضل ونسائه المحتشمات. وليقابل بين لبسه المزخرف وليس اولئك الاغنياء البسيط. وما اجمل السوري لو اقتدى بتواضعهم مهما ارتفعت منزلتهم وزادت ثروتهم! فان الواحد منا يُصبح في الغالب صعب المراس شامخاً بأنفه عندما تتوفَّر ثروته او يرتفع مقامه – فالفضل العظيم يبقى لمن لا يقيّد نفسه ببعض عوائد مستهجنة يصبح لها عبداً

2 مرض التقليد في حياتنا العيلية

وهذا التقليد الأعمى لعيوب الاجانب في حياتنا الفردية تخطَّى إلى حياتنا العيلية فضعضع اركانها وفرط عقدها بعدما كان محبوكاً بدررٍ ياقوتية. فأخذ شباننا يتحدَّون الأجانب في عوائد لم يكن شرقنا يعرفها من قبل وقد كـنا بدونها سعداء. واليكم بعض الأمثال: قبل أن يفكّر شابّنا في من تكون شريكة حياته ومقاسمة افراحه واحزانه، قبل أن يفكّر في آدابها و مهارتها وحسن تربيتها و كمال صحتها، يبتدئ يفكر اليوم في البائنة (الدوطة). واذا كانت الدراهم السبب الأكبر لعقد الزواج فسلامٌ على اعتبار الزوج وعلى ارضاء العروس في كل مطالبها وسلام على الراحة المنزلية. فيكون شباننا والحالة هذه جانين على البنات الفاضلات، القليلات ذات اليـد، العائشات مستورات في بيوتهن، وهنّ يمارسن كل انواع الفضيلة

أَلا يحق لنا أن نلوم ايضاً اللوم العنيف بعض البنات المتطلّبات، اللواتي يُخِفن الشبان ويرعبنهم بشدة طلبهنّ للحلى والزخارف وقضاء أَوقاتهن في المقابلات والتنزهات وحضور المسارح والروايات؟ لا بل اللوم بالأكثر يقع على والديهن الذين لا يردعون بناتهم ويعوّدونهن مثل هذه العوائد التي لا تطيقها حالة اكثر شباننا

يتأخَّر الشاب في زواجه وفي أثناء تأخُّره يحوم في الغالب كالفراشة حول كل نور وهَّاج، لا يلبث أن يحترق فيه. وبعد ان يكون قد خسر أَنقى دمه واكثر دراهمه واطيب شطر في حياته يُقْدم على الزواج بقلب فاتر وجسمٍ نخره الفساد وشوَّهته العاهات، فيظلم والحالة

هذه بنات الناس اللواتي يتخذهن كممرضات. ويظلم اولاداً لا يولدون من دم نقي ولا يتمتعون بتربية والدهم

واذا اقدم شابُّنا على الخطبة يستبيح لنفسه في غالب الأوقات حرية مع خطيبته لم يكن شرقنا معتاداً اياها. فيطيل أيام الخطبة إلى ما فوق المأْلوف، وكثيراً ما يرجع عن كلامه بعد أن يترك خطيبته وردةً ذابلةً تحوم حولها الظنون ويحرمها حظوظاً قد يكون لها منها نصيب

وافى يوم فرح الشاب وهو كـثيراً ما يكون يوم حزن الوالدين اذ تبتدئ آمالهما التي بنياها على ابنهما تتهدم فيصبح مراراً كثيرة عديم المنفعة لهما وتأخذ شريكة حياته بيدها اللطيفة الفأس فتقطع كل ما كان يصله بأسرته بابيهِ وامهِ واخوتهِ إلى أن تُقصيه عنهم وتأخذ تتمتع به وحدها ولا يهمّها ما يذوق اهله من لوعة الفراق ومن عذاب المعيشة. وقد كانت أُسرنا عامرة بوجود الكنائن معاً بدون نزاع. وقد عرفتُ اسرة شرقية يعيش اعضاؤها البالغون سبعين نفساً الأجداد والاباء والاولاد في بيت واحد، فتراهم كلهم على مائدة واحدة، وكلهم سعداء بطاعتهم للأكبر. الا ان فتاتنا العصرية تستصعب في بيتها رؤية شيخ ثقيل او عجوز مراقبة، مع انها لو صبرت قليلاً لرأَت في حياتها أُمًّا ثانية تساعدها على تربية أولادها وعلى حمل عبء البيوت التي ينوءُ كاهلها عن حملها لقلة خبرتها. وهب ان راحة البال قضت على المتزوجين الجديدين بالسكنى منفردين أَلاَ لتزم الابن بمساعدة والديه المحتاجين وان ابتعد عنهما ؟ ولكن الزمان دولاب فهو يدور على من كان سبباً لهذه

العوائد. فان هذه الفتاة بعد ان تكون ولدت البنين وقضت عمرها في تربية أولادها ستُعامَل نفس معاملتها لوالدي زوجها، وعوضاً عن أن تكافأ في عجزها عن تربيتهم ترى الوالدة نفسها احياناً كثيرة في اواخر ايامها في حزن وحاجة وامتهان. وعلى الباغي تدور الدوائر . ومن لا يكرم اباه وامه لم يعده الله بطول العمر ولا يوفَّق في اموره

وبعد الزواج لا يبقى لبعضهم همٌّ الا بحصر عدد البنين ولا يخشون من أن يدوسوا نواميس الطبيعة والدين للبلوغ إلى مرادهم. الامر الذي لم يكن يعرفه شرقنا المؤمن بعناية الله وتدبيره فيتوهم الواحد منهم انه الخالق والمحيي والرازق والمميت ولا يؤمن بعناية الهية تكفَّلت بان تعطي لكل انسان رزقه، وان لم تتكفل بالغنى. وينسى أن الأولاد سيساعدون فيما بعد بعضهم بعضاً على التربية، وانهم سيصبحون له سنداً وفخراً ومجداً . وكم من مرة عوقب اصحاب الفطنة الزائدة بفقد ذاك الشاب الذي حصروا فيه كل آمالهم! وكم من مرة شاهدت بالعكس أُسراً قليلة ذات اليـد انفرجت الدنيا في وجهها على مقدار ما كان يولد لها من البنين!

ومن الوالدين من يتركون أولاداً ينامون غير متمتعين بلذة رؤية والدهم، وحليلةً تتألم لوحدتها في النهار والليل. يقضي كثيرون سهراتهم خارجاً عن بيوتهم مع ان اكبر ملذات الحياة لمن اختبرها هي الملذات البيتية، ولا يفوقها شيء من ملذات الحانات وليالي الطرب. ولو لاحظنا الاجانب في هذه المرة لرأينا أُسرهم ذاهبات زرافات إلى المتنزهات العامة ومشتركات في الالعاب الرياضية والنزهات الصحية

وتظن فتاتنا انها بمعرفة لغة اجنبية و بالضرب عـلى البيانو اصبحت قادرةً على ادارة البيوت ومعاركة الحياة، وفاتها أن اول على لها هو علم ادارة المنزل والاشراف على الطبخ والغسل وترتيب البيت ونظافته. ومهما كان لها من الخَدَم فهم لا يقومون مقامها ما لم يشتغلوا تحت مراقبتها

3 مرض التقليد الأعمى في حياتنا الاجتماعية

هذه بعض عيوب اسرنا في تقليدها الأعمى للأجنبي وليست الفوائد الناتجة عن هذا التقليد اقل ضرراً في مجتمعنا. فان تحدِّينا هنا للأجانب قد يصبح موضوع ازدراء بنا. لان البعض يحاولون ارضاءَهم إلى درجة أنهم ينسون جنسيتهم ويتظاهرون بجنسية غيرهم ويظنون نفوسهم انهم يكبرون في عيونهم بينما هم يصغرون، لان الاجانب المتمسكين بجنسيتهم إلى حد المغالاة لا يفهمون هذا التزلُّف الذي اصبح تذللاً فيحتقرونهم ويتبرأون منهم

وقد انتشر فينا اتباع هذا التقليد الأعمى حتى في الأمور الدينية، فإن البعض يتظاهرون بعدم معرفتهم لغتهم العربية التي فيها تتلى صلواتنا ويظنون نفوسهم ارفع مقاماً اذا صلَّوا في غير كنيستهم وبغير لغتهم

واتباعنا للأجانب في ملذاتنا بمشاهدة الصور المتحركة والمسارح والروايات أصبح يسمّ قلوبنا وآدابنا كالمخدرات التي تسم جسم مستعملها وهو لا يشعر .. ومعروف كيف يتلاعب ذوو

المآرب لجرّ المغنم اذ يمثّلون اموراً اصطناعية لم تمرّ الا في مخيلتهم، فانهم يصطلحون على السرقة والقتل ومبادلة عواطف الغرام فيشخصونها ويصورونها ويعرضونها للأنظار مستدعين الناس بتلك الهيئات الغريبة التي نراها في الاسواق. يتجولون بإعلانات كبيرة عازفين حولهـا بآلات الطرب ليستجلبوا اسماع وانظار محبي الملاهي ويبتزّوا أموالهم برقة ومهارة بشكل غريب. ويا ليتهم يقتصرون على عرض صور المناظر الطبيعية والحوادث التاريخية والنـكات الادبية! وكثيراً ما يخسر الاولاد والبنات من الآداب في نظرة واحدة ما اقتبسوه في التربية المنزلية والمدارس مدة سنين عديدة

واما الروايات التي يمثلونها فانهم يعمدون في غالب الاوقات الى ارضاء الأهواء السافلة في الشعب فيرضونه بالمناظر الخلاعية والاغاني الغرامية مع تمثيل انواع القتل والنهب والسرقة ومظاهر الغرام فيخرج المتفرج وقد زاغ عقله وفسد قلبه وفترت عزيمته وفرغت محفظة دراهمِه وضاقت نفسه في تلك الاجتماعات المتراكمة كالبنيان المرصوص. وكان الأولى بنفسه وصحته لو ذهب مع اعضاء اسرته إلى الجنائن والمتنزهات فاستنشق هواءً عطراً ونقى دمه وجدَّد قواه ووفَّر دراهمه ووقته وصحته

نتقلد في افراحنا الرقص الاجنبي ويا ليت البعض منا يكتفون بالأدبي منه ما بين اعضاء اسرنا وبين الاصحاب، لكنهم يتخطون بسرعة كل حشمة وادب فيستبيحون لنفوسهم، مستندين على الراي الدارج، ما يأباه الضمير والشرف والادب فضلاً عن النخوة الشرقية وعزة النفس العربية : مثل تلك المخاصرات والمعانقات التي يمجّها الذوق السليم ويندى لها

الجبين الطاهر ولا يقبلها الشريف الأصل على حليلته او شقيقته او العزيزة عليه. واذا ادَّعى البعض ان آداب المجاملة تقضي بذلك فليأذنوا لنا في رفض مدعاهم، لان لا تمدن حقيقي الا مع الآداب القويمة والاخلاق الحسنة. وانا نذكر هنا على سبيل الفكاهة حادثة أناس قد ابتدأوا في ليلة راقصة برقص اجنبي خلاعي ولما لعبت برؤوسهم نشوة الويسكي والكونياك غلب الطبع التطبع ورجعوا إلى رقصهم البسيط الشرقي فانتهوا ... بالدبكة

نتشبَّه بالأجانب في شرب الكحول بكمية مضرة وقد كان الذين يفرطون في شرب المسكرات في شرقنا يُعدّون على الاصابع. وقد اصبحوا الآن ويا للأسف كثيرين وهم لا يبالون بعقل يفقدونه، ولا بقلب يفسدونه، ولا بجسم يضنكونه، ولا بشرف يضيعونه، ولا بمال يبددونه، ولا ببيت يهدمونه، ولا بزوجة واولاد يتعسونهم . تعوّدوا شرب الكأْس وهي عادة في البدن لا يكاد يغيرها غير الكفن

ومما يجرُّ الخراب العاجل عادةٌ سيئة أخرى قد سرت الينا من الأجانب وهي لعب القمار أي الاستيلاء العاجل على مال الغير بوسائل غير مشروعة لا يحلّلها ضمير ولا دين، أو الخسران بطريق الحرام لمالٍ حلال يحرم منه المقامر نفسه وزوجته وبنيه ويعرّض بيته الى الخراب والدمار. وقد فشت هذه العادة الذميمة في بيوت الفضيلة فعرَّتها من هذه الحلية : لان لا فضيلة مع لعب القمار . وقد دخلت كالسلّ على سبيل التسلية الى ان اصبحت داءً بل وباءً انتشر في عدد كبير من الاسر الشرقية. ومما ينتفض له الجسم رؤية بعض السيدات ربَّات البيوت يلتهين عن الاهتمام بأزواجهنّ واولادهن وبيوتهن في هذه المجازفات ويخسرن

اوقاتاً ثمينة جعلت لغير هذه الغاية، ويعوّدنَ اولادهن عوائد رديئة من ورائها دكّ صرح مستقبلهم : وقد خُلقت المرأة لتكون للرجل ملاكاً سماويًّا لا شيطاناً رجيماً

هذه بعض عيوب نتقلد بها الاجانب. ويا ليتنا كنَّا نتقلد صفات أُسرهم الممتازة في حبها لوطنها الذي يأتي بالعجائب كما رأينا في هذه الحرب الكونية. يا ليتنا نتعلم المشاريع الخيرية والمصالح العامة التي لأجلها يضحّون بالمصالح الخاصة. يا ليتنا نتعلم منهم مساعدتهم بعضهم بعضاً وتضامنهم فنتساعد ونتكاتف ويشد بعضنا أَزر بعض ولا نجعل نفوسنا شماتة للأجانب الذين ينظرون نظرة الازدراء إلى مناظراتنا ومشاحناتنا العقيمة . واخيراً يا ليتنا نتعلم منهم أن نفضّل نفع بني جنسنا على منفعة الغريب. فنفضّل الشراء من عند تجَّارنا والمداواة عند اطبائنا ونستخدم صنَّاعنا ولا نتوهم مبدئيًّا ان الاجنبي متفوقٌ علينا ما لم يكن ذلك في أحوال معلومة واضحة

وقبل أن نحاول اكتساب فضائل غيرنا ينبغي الا نضيع صفاتنا الشرقية وما ورثناه عن اجدادنا: فقد علّمنا اجدادنا دماثة اخلاق عرَّفتنا أن نعيش مع الكبير والصغير والقاصي والداني. علَّمونا سخاءً حاتميًّا وحب الضيافة للغريب وسعة الصدر نحو الحزين المبتلى. علَّمونا حبًّا للوالدين شديداً، سمعت معه رجالاً شرقيين يستغيثون بوالديهم في مصاعبهم قائلين بلهفة ((يا رضى الوالدين)). علَّمونا أن يحترم الرجل امرأته وان تعرف المرأة مقام رجلها. فما كان اجمل اسرتنا الشرقية يحافظ كل أفرادها على مقام غيرها. علمونا اباء النفس والشرف الذي كانوا يقولون معه : المنايا ولا الدنايا وخيرٌ من ركوب الخنى ركوب

الجنازة. علمونا المحافظة على عرضنا كما نحافظ على ارواحنا. ورثنا من اجدادنا الرصانة والهدوء في معاملاتنا والذوق السليم في اجتماعاتنا. ورثنا عنهم حب الله، وما اكثر عدد القديسين منهم، ورثنا اعتبار رجال الله والمحافظة على مبادئ ديننا كعلى ارث ثمين. تلك الصفات الجميلة التي بثُّوها في دمنا ينبغي أن نبقى محافظين عليها فنبقى رجالاً لا يزعزعنا تيَّار العصر الجارف ونظل متكاتفين متعاضدين معيدين ذكرى ماضينا المجيد

واني ارى في حسن مبادئ شبان هذا النادي الاعزاء وهممهم العالية واتفاقهم بعضهم مع بعض ما يكفل لهم ان يمشوا في مقدمة الجالية السورية في الابتعاد عن العوائد المستهجنة وممارسة أعلى الفضائل الاجتماعية وأَسماها، وإني واثق بانكم لا تخيبون الآمال